رأس مستعمل للبيع

شيرين فتحي

قصص قصيرة: رأس مستعمل للبيع
المؤلف: شيرين فتحي

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: مروة فتحي
رقم الإيداع: 20164 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-85544-4-1
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبِّر عن رأي كاتبها، و لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

رأس مستعمل للبيع

(قصص قصيرة)

شيرين فتحي

نحن نكتب لنُرتِّق ثقوبَ الروح

إهداء

إلى أمي

إلى محمد

إلى نور، وياسمين، وحلا، وأحمد

إلى ريهام

هذه القصص كُتِبت ما بين عامي 2014 و2018.

كالعادة،

استيقظ قبلَها بعدة ساعات،

حاولتْ أن تتظاهرَ بالنوم لساعة إضافية حتى يحين موعدُ ذهابِه إلى العمل، كانت تتمنى لو تركَ لها مساحةً مناسبة اليوم، فمساحةُ الأمس لم تكفِها كي تتمكنَ من المرور ما بين حجرات المنزل دون أن تصيبَها بعض الخدوش.

قابلة للقضم

لم يخبرها أنه كان يبحث عن عروسٍ قابلة للقضم، ولكنها لم تعترض على القضمة الأولى.

كانت قد رأت بعضَ الصديقات والقريبات وقد تعرض بعضهن للقضم بما فيهن أمُّها. لم تنس أبدا المرة الأولى التي لمحت فيها تلك الفراغاتِ الناقصةَ من جسمها.

سألت أمَّها مرةً وهي تحممها، كان البخار المتصاعد من سخونة المياه يحول دون رؤيةِ ملامح وجه الأم بوضوح.

– هل تلك الفراغات مؤلمة؟

أجابتها في برود بينما كانت تدعك كتفي الطفلة بالصابون:

– لا أعرف كيف أصف، ولكنك فقط تعتادين الأمر!

استعادت شكلَ أمها، وأحست بسخونة المياه تنساب فوق الفراغ الأول، حاولت أن تتخيلَ حجمَ الفراغ وشكله خاصةً وأنها قد تحاشت الاقترابَ من المرآة لفترة طويلة.

اتفقا بعد أول قضمة أن يحاولَ تجنبَ وجهِها وكفيها، وتلك الأجزاءِ البسيطة المتبقية منها بعد ارتداءِ الملابس وغطاء الرأس، سمحت له بالتهام الأجزاء الخلفية من رأسها، وطلبت منه أن يتجنبَ بطنها كي لا يحرمها فرصةَ الإنجاب. امتلأت بطنُها وأفرغتها مرتين قبل أن يبدأ في قضمها للمرة الأولى.

في اليوم الذي أفرغ فيه كتفيها تماما من اللحم شعر بالحزن الشديد وبالوحدة أيضا، فقد كان يشعرُ براحة سحرية كلما كان يتكئ برأسه على أحد كتفيها. حاولت أن تخففَ عنه حزنَه، فخلعت بعض الكتافات من ملابسها، وثبتتهم قدرَ ما استطاعت على كتفيها الفارغين، لكن طراوةَ تلك القطعِ الإسفنجية الرقيقة لم تأخذه لتلك اللحظاتِ السحرية أبدا.

فكر في الذهاب إلى طبيبٍ نفسي ليساعده على التخلص من تلك الغريزة الخفية التي تدفعُه لقضمِ أجزاءَ منها، كان يخشى أن يفرغها تماما من كل شيء، وألا يتبقى منها سوى هيكلها فقط كأمه.

كانت أمُّه تطلب منه أحيانا أن ينحني على الأرض ليلتقطَ لها بعض العظام الصغيرة التي انسابت من أحد كفيها أو قدميها العارية تماما من اللحم، فكان يجمعُ عظامَ الأصابع ويلضمها معا بخيط جديد ثم يثبتُها في أحد العظام الكبيرة.

أعطاه الطبيب بعضَ الأدوية، وعلمه بعض التمارين لكي تساعده على التحكم في أعصابه ورغباته التي تدفعه للقضم، شعر بتحسن ملحوظٍ في بداية الأمر، لكن هذا التحسنَ لم يدم طويلا، فقد عاودت رغباتُه تداهمه من جديد، وظهرت عليه بعض أعراض الاكتئاب لعدم قدرته على تحقيق التوافق بين ما يريده وبين هذا الذي يحركُه من الداخل، فهمست له أمُّه مرةً في محاولة منها للمساعدة؛ أن يعاودَ القضم.

لم تشعر بنفسها إلا وهي تطلبُ من طفلها الأكبر أن يساعدها على التقاط تلك العظيماتِ الصغيرة التي انسابت من كفها وإحضار خيط جديد للضمها معا من خلال ثقبٍ صغير إلى أحد العظام الكبيرة.

جميل

كان جميل أجمل شخص رأيتُه في حياتي، لم يكن الأجملَ لملاحة وجهه، ولا للون بشرته الأبيضِ الصافي كالحليب، ولا لعينه العسلية الواسعة والمغطاةِ برموشٍ وحواجبَ سوداءَ وكثيفة، ولكنه كان الأجمل لحلاوة لسانِه، وشدة حنانه معنا.

لم يخرج من بطن أمي سوى جميل وأنا، حاولت أمي كثيرا أن تنجب بعدي، أخذها أبي إلى أكثرَ من طبيب، ولكن في كل محاولة كان يتدفق الدمُ منها بلا سبب وينتهي الحمل.

كثيرا ما كانت تقسم أمي أن كلَّ دمٍ يتدفق منها هو طفل لم يكتمل، حتى أنني عندما كبرتُ ورأيت دمي المنسابَ لأول مرة، اعتقدت أن أحد أشقائي قد أخطأَ وتسلل إليَّ بدلا منها.

أخبرتني أمي أن لي عددا لانهائيا من الأشقاء، كانت تحكي عنهم طوال الوقت، ولأنني لم أرَ منهم سوى جميل، فقد أحببته بقدر حبي لكل هؤلاء الصغار الذين ضاعوا منا أنا وهي.

لم يملَّ أبي أبدا من اللف معها على الأطباء، ولكن حين انقطع الدم عنها نهائيا احتضنها وطلب منها أن تحمد ربها على نعمه فانصاعت له. وبمرور الأيام تاهت أمي منا في طلباتنا وطلبات المنزل التي لا تنتهي، ولكني كلما كنتُ أدقق في عيونها العسلية كنت ألمحُ شيئا ناقصا في روحها، هذا الشيء الناقص كان يخبو فقط أول كل عام هجريٍّ حين كانت تطلب من أبي أن يقوم بتغيير طلاء المنزل باللون الذي تحددُه هي على مزاجها.

في الموعد المحدَّدِ كنا نضطرُّ لفك الأسرة وتجميع أثاث المنزل كله في غرفة واحدة، ونظلُّ نفترش الأرض لعدة أيام، وذلك حتى ينتهي النقاش وتجفَّ ألوان الحوائط الجديدة.

أحيانا كنت أشعر بالغضب من أبي لأنه لا يعارضها، ولا حتى يحاول أن يثنيها عن تلكَ المشقةِ المتكررة، ولكني لما كبرت وبدأت ألاحظ اعتدال مزاج أمي وعودةَ البريق لعينيها في تلك الأيام من كل عام أصبحت أشعر بالرضا لأن أبي لم يعارضها قط.

سعادة أمي بالألوان الجديدة لم تكنْ تدومُ كثيرا، ربما لشهر واحد على الأكثر، ولكنَّ السعادة الأكبر كانت لأبي وكأنه يقول: يكفيني منها شهر كل عام.

قبل أن ترحل أمي بعام واحد دخلتْ علينا في أحد الأيام وهي تحمل كراتينَ ممتلئةً عن آخرها بالعديد من البرطمانات الزجاجية. كانت تلك البرطمانات متفاوتةً في الأحجام والأشكال، لم أتخيل أن الطبيب كان قد احتفظ لها بكل الأجنة التي لم تتمكن من الالتصاق جيدا برحمها، وجمعهم لها في تلك البرطمانات.

قضت أمي عدة أيام في حجرتها منعزلةً مع صغارها المحبوسين في تلك البرطمانات الصغيرة، لعدة أيام كانت لا تغادر الحجرة، ولا تتحدثُ مع أحد، كان أبي يطمئن عليها عن بعد، ثم يطلب منا ألا نزعجَها، حتى خرجت هي وطلبت مني في مرة أن أدخل معها لتعرفني على أشقائي الصغار.

كانت قد لونت كل برطمان بلون من بقايا الدهانات المستعملة، وألصقت بطاقةً على كل برطمان؛ كتبت على البطاقة تاريخا محددا، وحددت نوع الطفل، وأطلقت عليه اسما حسبَ درجةِ اللون التي اختارتها لتلون به برطمانه الشفاف، فمثلا كان هذا أخي الأزرق الفاتح، وهذا أخي البنفسجي،

وتلك شقيقتي الوردية، وكانت هناك القرمزية والبرتقالية والعديد... والعديد من الإخوة والأخوات. الغريب أن أصغر الأشقاء كان يحمل نفس لون الحائط وقتها!

لكل هذا لم أعرف أحدا في هذا العالم إلا جميل، كان هو أبي وأمي وكنت أمَّه وأباه، كان يصحبني معه في فسح كثيرة داخل بلدتنا وخارجها، كان يعرفُ حبي للموالد؛ فلم يكن يسمح لأي مولد في قريتنا أو حتى في قرية مجاورة أن يفوتنا.

كان يمسك يدي ويساعدني على تصويب البندقية في لعبة التصويب ونحصل معا على الهدية التي يتركُها لي دائما، سواء كنت أنا من صوب أو هو، كان يركبُ إلى جواري في المراجيح الحديدية ونظلُّ نعلو ونهبط معا في سعادة.

أحيانا كنا نمشي على أقدامنا إلى تلك القرى، وأحيانا كنا ننحشر في سيارات بدائية، لكن متعتَنا كانت تزدادُ إذا ما كان لوجهتنا محطة قطار قريبة، فهذا كان يعني أننا سنسافر بالقطار.

كان القطار أكثر راحةً من السيارات المغلقة على ركابها كالصناديق، فشبابيكه الكبيرة كانت أفضلَ بكثير من تلك الفتحات الضيقةِ الموجودة في السيارات الأخرى والتي غالبا لا تكون في مستوى الأعينِ، فلا تسمح لنا بأية رؤية... في القطار كان يخفض جميل كتفَه قليلا لأستريح عليه. في كل مرة كنت أسند فيها رأسي على كتفه كنتُ أشعر أن كتف جميل هو أجمل ما فيه، كنت أنامُ عليه لساعات دون أن يملَّ أو يتحرك كي لا يقلقني. كنت أشعر أنَّ كتفَه مهيأٌ لرأسي تماما، كنا كقطعتي بازل تكتملان بدخول القطعِ البارزة إلى التجاويف المناسبة لها.

كان يأخذني إلى المدينة الكبيرة؛ فنتجول في شوارعها، يلفح وجوهنا الصهد الذي لا تحبسُهُ الأشجار ولا البنايات المرتفعة، في كل مرة زرنا فيها

المدينة كان جميل يأخذني لأحد أكشاك الحلوى؛ يشتري لنا زجاجتين من المياهِ الغازية المثلجة لتهدئ إحساسَنا قليلا بالحرارة، وبعدها يصرُّ على أن يشتري لي قطعةً من الشكولاتة، تلك الشكولاتةُ مرتفعةُ الثمن والتي لا تُبَاع في بلدتنا.

في كل مرة كان البائعُ يبتسم لنا ويغمزُ بعينيه لجميل ظنًّا منه أننا صديقان جمعهما حبٌّ طفولي. كنا نستمتع بخداع هؤلاء الباعة ولم نخبر أحدا منهم أبدا أننا شقيقان، فلم تكن بيننا ملامح مشتركة.

ورث جميل عين أمي العسلية وشعر أبي الأسود، بينما ورثتُ من أمي شعرها البني ومن أبي بشرته القمحية. في كل مرة زرنا فيها المدينة كان جميل يقول: «أنت أجمل بنت رأيتها في المدينة اليوم!»

تزوج أخي في المدينة وأنجبَ طفلتين تشبهانني. أصبح البيتُ كئيبا في غيابه، كنتُ أنتظر زياراتِهم لنا بفارغ الصبر أو أنتظرُ أن ترسلني أمي إليهم بصينية أرزْ معمرْ أو حلةْ محشي، تلك الأطعمةُ التي لا نحتمل أن نأكل منها ولا يتذوقها جميل.

بمرور الوقت أصبح جميل بعيدا، والبنتان كبرتا، ولاحظت أنهما صارتا أكثرَ حذرا في التعامل معي، تشي عيونهما بكلمات ملقَّنة، فأصبحتُ ألتزم غرفتي كلَّ زيارة. قلت الزيارات كثيرا بعد رحيل أمي. دفنها أبي ووضع إلى جوارِها كل البرطمانات الملونة.

كان قد ترددَ قبلَها: هل يفرغ تلك البرطمانات من سائل الفورمالين الذي تسبحُ فيه تلك الأجنة الصغيرة، ويجمعُها كلهَّا في لفافة واحدة؟ أم يتركُها كما هي؟ في النهاية قرر أن يضعها كما هي، كما تركتها أمي، كما لونتها وكتبت عليها، لم يغير فيها أي شيء.

كانت أمي تأتيني كثيرا في المنام، في كلِّ مرة كانت تصطحبُ معها برطمانين أو أكثر، كانت تسألني عن حالي وتحكي عن أحوالها وقبل نهاية

الحلم بقليل كانت تفتحُ غطاءَ كل برطمان؛ لتتحول النطفة الصغيرة التي بلا ملامح إلى طفل جميل صحيح ومكتمل البنية، وتنظر لي بعدها في زهو وتقول: «اتفرجي عَ الجمال!» كان الأطفال ينضجون أمامي، وتتعالى ضحكاتُهم مع ضحكات أمي التي تحملهم في نهاية كلِّ حلمٍ وتمضي.

تعلمت أن أزورَ المدينةَ وحدي، أن أركبَ المواصلاتِ بلا رفيق، أن أسند رأسي على زجاجِ نافذة الميكروباص أو القطار وأنام.

في آخر زيارةٍ تجولتُ في الشوارع الواسعة التي أعرُفها، لفحني الصهدُ الذي لا تحوشُه العمارات الكبيرة ولا الأشجار، توقفت عند أحد أكشاك الحلوى، ابتعتُ زجاجةً من المياه الغازية، جلست على كرسي بلاستيكي وضعَه البائع إلى جوار الكشك، انتهيت من الزجاجة وأعطيتُه النقود، ابتسمَ حين طلبتُ منه قطعةً من الشكولاتة التي أحبُّها، أعطاها لي وتمتمَ ببعض الكلمات في محاولة بائسة منهُ لمغازلتي قائلا: «أنتِ أجملُ عانسٍ في مدينتنا اليوم!»

حرف الدال

كان إذا ما عرفَّها لأي من معارفه، ذكر اسمَها مجردا من أية ألقاب، وأحيانا كان يقدِّمُها بقوله: حرم فلان، ذاكرا اسمَه هو.

كانت تشعر بتوتره الشديدَ كلما وُضِع في موقف يضطر فيه لتقديمها لآخر، بعدما وضعتْ طفلتها الأولى أصبح الأمر أكثرَ سهولةً فأصبح يقدمها باسم أم فلانة، لكن ذاك اليسرَ لم يدم طويلا خاصةً بعدما كبرت الطفلة، فأصبح يناديها باسم أم فلان، مع العلم أن فلان هذا كان اسمه هو.

حتى كانا في مرة معا في إحدى العيادات الخاصة، كان يدفع قيمة الكشف وهي واقفة إلى جواره، وحين سألت الممرضةُ عن الاسم نطقت اسمَها قبل أن ينطقه هو قائلةً: الدكتورة فلانة، فنظر إليها وإلى الممرضة التي انصاعتْ لها، وأسبقتْ اسمها بحرف الدال بامتعاض شديد، فانصرفَ وتركها لتنتظرَ دورها، وتدخلَ حجرة الكشف بلا مرافق.

موظفون للعالم الآخر

«مطلوب: موظفين للعالم الآخر»

لا أعرف بالضبط متى بدأتْ تلك اللافتةُ في الظهور، هذا قبل أن تبدأ في الانتشار بتلك الصورةِ المرعبة. كنت أرى اللافتةَ أمامي طوال الوقت، كانت مكتوبةً بخط سميك وببنط كبير على جدران العمارات الكبيرة، وبخطوطٍ صغيرة، ولكن واضحةً على أوراق بيضاء صغيرة يلقيها الصبية علينا في الشوارع.

كان هذا قبل أن تبدأ اللافتةُ الأخرى في الظهور، اللافتة الأخرى كانت صغيرةً نسبيا، تشبهُ لافتات المترو التي تظهر فجأةً أمامك في الشوارع لتنبهك إلى وجود محطة مترو مختفيةٍ بأكملها تحت الأرض.

كانت تشبه لافتات المترو إلى حدٍّ كبير غير أن حرف (الإم) الشهير باللغة الانجليزية لم يكنْ مكتوبًا. كانت هناك عدة أحرف غير واضحة، أو بالأدق لم تكنْ لتصنعَ كلمةً محدَّدة، ففي كل مرة كنت أُكوِّن من الأحرف كلمةً مختلفة، وإن ظلت الكلمات كلها في النهاية بلا معنى.

كان السهم المشير إلى الأسفل هو الشيءَ الوحيدَ الواضح والمشترك في كل اللافتات، والفتحةُ الضيقة الموجودة على سطح الأرض والتي غالبا ما تنحدرُ منها ممراتٌّ كثيرة بعد انتهاء تلك السلالم الطويلة كانت أمرًا مشتركا أيضا.

بمرور الوقت كان عددُ اللافتات يزداد بطريقة مريبة، كان الورق الصغير يتساقطُ عليك بالعشرات أو بالمئات في داخل السيارة الواحدة،

وكلما تخلصتَ منه هاجموك بأعداد أكثر، كان الورق في كل مكان، يدخل إليكَ من شباك السيارة أو الأتوبيس، أو يُلْقَى عليك من ركاب المواصلاتِ إن كنتَ سائرا على قدميك في الطرقات، كان يتساقطُ من البنايات، وأسطح البيوت، وأحيانا أخرى كنت ألمحُه يسقط مباشرةً من السماء.

حاولت أن أسأل أحدَهم في مرة عن إحدى اللافتاتِ التي خرجت أمامي فجأةً من الأرض، ولكني بمجرد ما بادءْتُه بالحديث حتى اختفى تماما عن عيني، كانت تلكَ هي الطريقةَ المتبعةَ معي هنا في الرد على أسئلتي، وذلك حتى من قبل أن أصبحَ من ساكني القاهرة، تلك المدينةُ التي لم أكن أقصدُها إلا لأسبابٍ ثقيلة كاستخراج ورقةٍ حكومية متعثرة، أو لزيارةِ مريض من الأقرباء في طورِ الاحتضار، فالقاهرة كانت تبدو لي دومًا كمحطةٍ أخيرة يعرجُ عليها المرضى قبل الرحيل.

أحيانا كان الأهل يصطحبونَ مرضاهم فقط إلى هنا ليثبتوا لأنفسهم ولأقاربهم أنهم قد بذلوا أقصى ما في وُسعهم. على الرغم من الفكرة الكئيبة التي كونتُها عن تلكَ المدينةِ إلا أنني كنت متحمسًا جدا حين حصلتُ على وظيفتي هنا كمحررٍ في إحدى الجرائد.

في نهاية كل أسبوع كنت أعودُ إلى مدينتي الإقليميةِ لزيارة أمي التي لم تقبلْ المجيءَ معي إلى هنا، لم تعجبْها المدينةُ، تكنُّ لها بعض الذكريات السيئة عن موتِ أبي وموت بعضِ الأقارب والجيران.

في نهاية كل عطلةٍ وقبيلَ السفر بقليل كانت أمي تسألني نفسَ السؤال: «كيف تثق في مدينة تضعُ إعلاناتٍ عن أحواش ومقابر بأسعار مغرية في كل مداخلها؟!»

في البداية كنتُ أتوه في شوارعِ العاصمة، كنت أسأل الكثيرين عن أسماء الشوارع والعناوين، ولكني لم أكنْ أحصلُ أبدا على أية إجابات، فإما

لا يجيبُك من سألتَه من الأصل وإما يبتسمُ لك في ود مصطنَع قائلا: «أنا أيضا ضائع!»

أيقنت بعد عدة مرات تهتُ فيها أن سكانَ تلك المدينة أغلبُهم تائهون، نصفُهم لا يعرف طريقَه، والنصفُ الآخر لا يعرف سوى طريقِه فقط، وفي الحالتين لا جدوى من السؤال. بعد عدة سنواتٍ أصبحتُ أنا أيضا مثلَهم؛ لم أكنْ أجيبُ على أسئلة أحد، ولم أكن أعرف سوى طريقي، وأحيانا كثيرةً كنت مثلَهم لا أعرفه.

كانت أعداد اللافتات والفتحات المؤدية إلى الأسفل تزداد كلَّ يوم، وكان حجمُ الفتحات يزداد اتساعا أيضا، ثم بدأت تظهرُ بعض التحديثات، فظهرتْ عباراتٌ جديدة مثل: (لا يُشترَط الخبرة)، (من الجنسين)، (من جميع الأعمار) ... لكنَّ تلك الجملَ الإضافيةَ لم تحملْ توضيحا أو شروطا فاصلةً للتقدم لتلك الوظيفةِ وكأن الأمر مُتَاح للجميع.

لم تعد الورقة تُلقى في داخل السيارة أو خارجها أو تسقط عليَّ من السماء فقط، بل كنتُ أشعرُ بأيادٍ خفية تدسُّها في جيوبي، وأحيانا كنت أخلعُ ملابسي لأجدَ جسدي كلَّه مُغطى بتلك الأوراق والعبارات الصغيرة، وأحيانا كانت تظهرُ تلك العبارة فجأةً على شاشة الموبايل لعدة ساعات قبل أن تختفي.

بمرور وقت آخر وبازدياد أعدادِ الإعلانات واللافتات بدأت الكلمة تتردد على لساني بغير انقطاعٍ وبلا أية مناسبة حقيقية في الحديث، ففي يوم الجمعة كانت تأتي أمي لتوقظني، تقول: «صباح الخير»، فأرد: «مطلوب موظفين في العالم الآخر!»

تقول: «الإفطار جاهز»، «أو كيف حالك اليوم؟»، «أو هل نمت جيدا؟» فأرد: «مطلوب موظفين في العالم الآخر!»

كانت أمي ترتبكُ من تكراري المستمرِّ لتلك العبارة، فتضطر للتهرب مني بالخروج من الغرفة أو بالتظاهر بالانشغال في أية أعمال منزلية، وأحيانا أخرى كانت تتجاهلُني، وتتابع حديثها وحكاياتِها عما فعلته في غيابي طوالَ الأسبوع.

حتى في العمل، حين دخلتُ لمديري الذي كان قد قرر مجازاتي بخصم يومين من المرتب لتأخري في إنجاز الأعمالِ المطلوبة مني وجدتني أردُّ عليه بنفس العبارة، فارتبك وعدل عن قرار الخصم. ولكن تلك العبارة لم تفلح معي بعدَها بمدة حينَ فصلني المدير نهائيًّا من العمل بعدما واجهني بالمقالاتِ الأخيرة التي أنجزتها والتي لم تكن بالمستوى المطلوبِ على حد رأيه.

حاولت أن أركزَ أكثرَ في اللافتات والسلالم، لاحظتُ بعض الناس على تلك السلالم، في الحقيقةِ لم ألمح أحدهم كاملا، لم أكن ألمح إلا نهايةَ رأسه وهي تختفي أو أطرافَ أصابعه التي يشير بها كأنه يودع أحدا، لم ألمح إنسانا كاملا أبدا وتلكَ السلالمُ والممرات تبتلعه معها إلى الأسفل.

الغريب أيضا أنني لم ألمحْ أحدا يخرج أبدا من تلك الفتحات، من الواضح أن المخارج لم تكنْ معروفةً أو ربما لم تكنْ موجودةً من الأصل، أخافتني تلك الفكرةُ الأخيرة خاصةً، وقد تذكرت سؤال أمي: «كيف تثقُ في مدينة تبتلعُ نصف سكانها تقريبا كل يوم في أنفاق تحت الأرض؟»

لكن كل تلك الأفكار لم تمنعني من التجربة في اليوم الذي فصلوني فيه من العمل، قررتُ أن أجربَ الأمر خاصةً وقد أصبحت بلا وظيفة، والإعلانات أيضا كانت قد بدأت في إضافة بعض العبارات المغرية:

(بمرتبات مجزية)، (وجبات مجانية)، (توفير السكن)، (تأمين طبي شامل) ...

بمجرد أن وضعت قدمي على أول الدرج حتى انسحب جسدي كله في أنبوب؛ بدا وكأن أحدَهم قد أفرغه حديثا من الهواء، فانسحبت مع هذا الهواء أثناء تفريغه.

في داخل الأنبوب رأيت المدينةَ من فوقي ولكنْ بطريقة معكوسة، سقفُ الأنبوب كان مصنوعا من الزجاج الشفاف، كان الإسفلتُ فوق رأسي وكذلك عجلاتُ السيارات وأقدام المارة، ارتبكتُ في البداية محاولا حمايةَ رأسي من الدهس المتوقَّعِ حتى أدركت وجودَ هذا الحاجز الزجاجي حين عبرتُ أسفل أحد الكباري ولم تغرقني المياه كما توقعت.

ألقاني الأنبوب في مكان شديد الاتساع، بدا كصالة استقبال ضخمة، وجدتُ العديدَ من الموظفين في استقبالي، ورأيت عددا هائلا من المداخل، وعددا أكثرَ من طالبي الوظيفة، طالبو الوظيفة كانوا بالفعل من الجنسين ومن جميع الأعمار.

كان الجميع باستثنائي يحملون بطاقاتٍ تعريفيةً معلَّقة في رقابهم وتتدلى فوق صدورِهم كما لو كانت ميدالياتٍ قد حصلوا عليها في بطولات سابقة، كان هناكَ أطفال بزي مدرسي وآخرون بزي رياضي، وآخرون بملابسَ عاديةٍ أو منزلية، كان هناك رجال وسيدات عجزة تساعدهُم بعض المدربات على السير، ويرشدونَهم إلى الطرقات المناسبةِ ليمروا من خلالها قبل أن يختفوا تماما عن نظري.

كان هناك بعضُ الرجال في زي كزي المستشفيات؛ أحدهم كان يجر وراءه جهازا لقياس دقات القلب، كانت صافرةُ الجهاز تدوي بلا انقطاع والخطُّ الأفقي يمضي خلفَ الرجل بما يشير إلى التوقف النهائي للقلب، بيد أن الرجلَ كان يسيرُ بطريقة طبيعية بل وبخطواتٍ سريعة نسبيا.

وكانت هناك امرأةٌ تمضي وخلفَها حاملُ المحاليل الذي نراه في المستشفيات، كان الحاملُ يمضي خلفَها معتمدا على العجلات المثبتة في أسفله، كانت بعضُ الخراطيم الطبية تمتدُّ من الحامل إلى ذراع المرأة.

بعض الناس كانوا جرحى يتدفقُ منهم الدم دون انقطاع، بعض الناس كانوا متعبينَ؛ يجرونَهم على كراسٍ متحركة، وكثيرون كانوا أصحاءَ يتحركون بطريقة طبيعية جدا...

وهكذا رأيت من كل الأحوال.

أولُ ما جال بخاطري: لِمَ لا يزالون يصرون إذا على زراعة تلك اللافتات وتوزيع الأوراق الصغيرة في كل مكان إن كان لديهم كل تلك الأعداد الهائلة من البشر؟!

اصطحبني أحد الموظفين إلى أحد الممرات، حاولت أن أخبرَه أنني لا أملك بطاقةَ تعريفٍ كالآخرين، ولم أحضرْ أية أوراق لأتقدم بها إلى الوظيفة. طلبتُ منه أن يسمحَ لي بالذهاب لإحضارِ تلك الأوراق من المنزل، ولكنه تجاهلَ الأمرَ بابتسامة ساخرة.

حين بدأ الخوف يتسرب إليَّ بدأت أصرُّ على الذهاب، لكن موظفَيْنِ آخرين جاءا وقيداني بحركةٍ مباغتة بأيديهما الثقيلة، وأجلساني على أحد المقاعدِ بعدما اقتاداني إلى إحدى الحجرات، كانت هناك لافتةٌ على باب الحجرة مكتوبٌ عليها بخط واضح: (المحرَّرون).

جلست بلا قدرة على الحراك، لكن بعد قليل بدأتُ أستعيد قدرتي على الحركة، وجدتُ أحدَهم يناديني وكأنه يعرفني، أخبرته عن أمر البطاقة والأوراق فأجاب: «لا تقلقْ، كل أوراقِك معنا.»

وأخرج لي من أحد الأدراج ملفًّا، لما فتحته وجدتُ فيه كلَّ الأوراق الخاصة بي، بدايةً من شهادة ميلادي وشهادات التطعيمات الصحية، وكذلك كل الشهاداتِ العلمية التي كنتُ قد حصلت عليها، بالإضافة إلى سيرةٍ ذاتية كانت تضمُّ كلَّ ما أعرفه وما لا أعرفه عن نفسي.

سألني: «هل استعدت وعيك؟ فكلما ذهبتَ إلى زيارة أمك في أحد أحلامها عدتَ إلينا ضائعا مشوَّشَ الفكر كما أنت الآن.»

كانت الأوراق ملقاةً أمامي بخطٍّ بدا مألوفا لي، كانوا يطلبون المزيد من العبارات لضمِّها إلى اللافتة، لم أكنْ بحاجة للسؤال عن أي لافتة يتحدثون، استأنفتُ الكتابة:

«مطلوب موظفين للعالم الآخر، من جميع الأعمار والجنسيات، ولا يُشترَط حسن المظهر أو السلوك!»

وقطعت أياديهن

كانت تعاقب كلَّ الرجال لأنهم ليسوا أنت، رمت الرجل الذي عاكسها في الشارع بالطوب لأنه لم يكنْ أنت، وحتى ذاك الذي كان من المقرر لها أن تعمل معه لم تستطعْ منعَ نفسها من رميه بكوب الشاي الساخن، ولعنِه علنا أمام الناس لأنه حاول أن يقلد طريقةَ مغازلتك لها، فسبته ولعنته لأنه قد أدى دورك برداءة.

كانت تبحث عنك بجنون داخل كل هؤلاء الذين قد يشبهونَك، لم يكنْ خطأها حين راقصها أحدهم وهو يرتدي قميصا مخططا له نفسُ رائحةِ قمصانك، أغمضت عينيها لحظتها واستسلمت له كما فعلتْ مرارا معك، لتفاجأ بعدها أنه لم يكن أنت، فصفعتْه وهربت.

من يومها وهي لا تتوقف عن البحث عنك أملا في الحصول على لحظةٍ واحدة سحرية كتلك التي حدثت معك في مرة ما أثناء الرقص.

من يومها وهي تبحث عنك في الشوارع والأتوبيسات، وحتى البيوت، كانت تحشرُ رأسها في كل الشبابيك وفتحات البيوت الضيقة، حتى الهواتف لم تسلم من جنونها، كانت تتصلُ يوميا بعدة أرقام غريبة تنتظر صوتا يشبه صوتَك الذي لا يأتي أبدا، ثم تبدأ في حكي قصتها للغريب الذي على الهاتف.

في كل مرة كانت تحكي نفسَ القصة، لم تكن تمل من وصفك الذي يتشارك الجميع فيه دون أن تشاركهم أنت. حتى أن الكثيرين كانوا قد بدأوا في التعاطف معها، وأصبحت حكايتها على لسان كل رجال البلدة تقريبا. كانوا يتصلون بها يوميًّا للاطمئنان عليها.

كانوا يجتمعون مع بعضهم البعض بطريقة شبه سرية كي يبحثوا عن أكثرهِم شبها بك في محاولة منهم للمساعدة، ولما أخبرتهم أن ملامحكَ قد وزعها عليهم ربك بالتساوي عرضوا عليها أن يتبرع كل منهم بالجزء الذي تراه هي مناسبًا، فتبرع أحدهم بعينيه وآخر بأنفه وآخر بأسنانه وآخر بصوته، وهكذا حتى اكتملت ملامحك تقريبا على يديها، حملت الملامحَ إلى بيتها انتظارا لحصولها على الروح المناسبة.

لكن النسوة غافلنها في مرة وسرقنَ كل تلك الملامح الذكورية ودفنها سرا خوفا من فقد رجالهن، ومن يومها وهي لا تخرجُ إلا بسكين حادٍّ بحثا عن أياديهن الطويلة.

رأس مستعمل للبيع

كانت تعشق الموسيقا والاستماع إلى الأغاني، ولكن هذا الأمر لم يكن مُتاحا إلا مع كاسيت السيارة، بينما في المنزل تصبحُ الموسيقا عبئًا ومضيعة للوقت؛ الواجب استثماره في أعمال أفضلَ أو أكثر قيمةً، كان هذا قبل أن يمنعها تماما من الموسيقا.

لم تكن السيارة تمنح جسدها الحرية الكافية للتفاعل مع الإيقاع نظرا لضيق المساحة، كانت تفتحُ شباك النافذة لآخره وتمد نصفَ ذراعها للهواء الذي يداعبه ويداعب وجهها، فيمنحها بعض الحركة التي قد تغنيها قليلا عن الحاجة للرقص، لكن الجزء المفتوح من النافذة ظل يتناقص تدريجيا حتى لم يعد يسمح بخروج ولو إصبعين فقط من كفها، وذلك كي تحمي الصغارَ من نزلات البرد المحتملة.

فُوجِئَت في مرة أن رأسها كانت تختزن تلك الموسيقا التي لم تتفاعلْ معها كما يجب، اكتشفت الأمرَ بينما كانت في أحد الشوارع عائدةً من أحد محلات البقالة، فوجئت بأصوات غريبة وإيقاعات صاخبة تتصاعد من رأسها سرعانَ ما انتظمت تلك الإيقاعات وابتدأت هي في التعرف إليها.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل شعرت بجسدها وقد بدأ يتحرك بتناغم جيد مع تلك الإيقاعات، حاولت أن تتحكم في الأمر لكنها فشلت، ظلت تدور وتدور مع الموسيقا المتصاعدة من رأسها عاجزةً تماما عن إدراكِ ما يحدث أو إيقافِه، انضمت لها عدة فتيات، وامرأة مسنة ركنت عكازها إلى أحد الأعمدة ودارت معهم بخفة، حين نفدت الموسيقا من رأسها انسحب الجميع، وانسحبت هي إلى الشارع المؤدي إلى البيت.

قضت ليلتين كاملتين محمومةً في الفراش، أو هكذا هُيِّئَ لها. كانت مرعوبةً لو أخبره أحدهم أنها كانت ترقص في الشارع، ولكن الأمر مر بسلام أو هكذا اعتقدت.

بعد يومين آخرين داهمتها نوبة الموسيقا من جديد ولكنها كانت نائمةً إلى جواره في تلك المرة، سمع الأصوات وهي تتسرب من رأسها، رأى جسدَها الناعس وهو يهتز بطراوة مع تلك الأصوات المتصاعدة، أيقظها فزعًا واستجوبها عن تلك الأصوات، أحست بالخجل ولم تجد في رأسها أية كلمات مناسبة لتتفوه بها، فاعتذرت، وحاولت أن تعاود النومَ من جديد رغم علمها باستحالة الأمر.

أصبح الأمر يتكرر معها كثيرا. أحيانا كانت تحاول الضغطَ على رأسها أو تتأكدَ من إحكام الإيشارب عليها كي تتجاوز الأمر، وأحيانا أخرى كانت تنتظرُ تلك الأصوات بفارغ الصبر. المرات الأفضل كانت تلك التي تباغتها فيها تلك الأصوات وهي خارج المنزل فكانت تتجه إلى الشوارع البعيدة عنه وعن الجيران وتترك روحَها وجسدَها للحركة.

في كل مرة كانت تنضم لها امرأة أو اثنتين على الأقل، كانت تلقي الأكياس وتخلع حذاءَها برفع ساقيها إلى الأعلى بحركة شبه استعراضية وتبدأ رقصتَها.

لمحها أحد الأقارب في مرة ووشى بها، لم يمر الأمر على خير، استسلمت له حين قرر أن يحشو رأسَها بفرد شراباته القديمة كي لا يترك في رأسها أية مساحة خاوية لشيء آخر، خاصةً وقد لمح صغاره أكثر من مرة وهم يقلدون حركاتها الراقصة.

بعد ثلاث ليال بدأت تشعر ببعض الأصوات المكتومة، حاولت أن تتجاهل الأمر ولكن الأصوات كانت تحتدمُ وتملأ رأسها وتضغط عليها بشدة،

وفجأةً شعرت بأن رأسها قد انفجر بعدما اندفعت شراباته القديمة إلى السقف وخرجت الموسيقا بعدها من جديد.

ظلت الشرابات تعلو وتنخفض مع الإيقاع المحشور لعدة دقائق قبل أن تسقط كلها على وجهه، قدمت له العديد من الاعتذارات بعدما أزاحت الشرابات عن وجهه الغاضب، حتى أنها قبلت رأسه ويديه عدة مراتٍ قبل أن يعلنَ مسامحتَه لها، قبل اعتذاراتها، ولكن بشرط أن يتخلصا من رأسها الملعون.

باتت ليلتها في الصالة وذلك بعدما أذابت بعض قطع الشمع في محاولة منها للحام تلك الثقوب التي تظنها موجودةً في رأسها كي لا تتسرب الموسيقا منها مجددًا.

اتفقت معه في الصباح أن يبيعا هذا الرأس ويتخلصا منه إلى الأبد، كان الأمر محزنا، لكن لم يكن لديها المزيد من الخيارات، أحضر هاتفه النقال وقام بتشغيل الكاميرا، أجلسها في أوضاع مختلفة بحيث يبدو رأسها مهذبًا في داخل الكادر، والتقط لرأسها بعض الصور التي لا تظهر مواضع اللحام، وعرضاه للبيع على أحد مواقع التسوق.

تلقيا العديد من عروض الشراء، كان أغلبها من الرجال الذين كانوا يرفضون هذا الرأس بمجرد أن يعرفوا أنه رأس نسائي. تلقت العرضَ المناسب بعد أسبوعين من فتاة عشرينية، خلعت رأسها وحصلت على المقابل، منعها أن تشتري رأسا جديدا بغير استشارته.

بعد عدة رؤوس عرضتها عليه ليساعدها في الاختيار، حاول أن يقنعها أن شكلها بلا رأس بات يعجبه ويثير رغباته نحوها بصورة أكبر.

واقتنعت.

احتكاك

لم أكن أتوقف عن حكِّ يدي في كل شيء أقابله، في أكتاف المارة، في جوانب السيارات، في جدران البيوت، في أعمدة الإنارة، وحتى في الأسفلت، كنت أدعكهما بعنفٍ في أسفلت الشارع ولكني لم أكن أرَ شرارةً منهما أو نورا.

لم يتردد الطبيب في لمس يدي، وكشف جزء لا بأس به من ذراعي، وفي ثوان معدودة انتهى كل اهتمامه بي، وابتدأ في كتابة أصناف الأدوية المناسبة، اتجهتُ إلى الصيدلية المجاورة، لم أنتبه إلا عندما قرأتُ ميعاد إعادة الكشف، أشرت لأول تاكسي، لم أجبْه عندما سألني عن وجهتي، لكني صرخت فيه ولم يفهم.

فركت يديَّ ببعضهما كثيرا، وبعنف، وتركت السائق، استخدمت ساقيَّ في محاولة للوصول إلى البيت الذي لم يكن بعيدا عني كما اعتقدت طوال الوقت. خلعت أصابعي المنهكةَ وعلقتهما على مسمار بالقرب من الفراش.

حين جاء ليتمدد كعادته إلى جواري لم يلحظْ اختفاء العشرة أصابع، وظن أنني كنت أهذي حين حكيت له على الهاتف أنني قررت الاستغناء عن كل شيء لن أتمكن من استخدامه لصالحي فيما بعد. لم ينتبهْ كعادته وابتدأ في مغازلتي، لكنني كنت قد بدأت في التيبس وواجهت صعوبةً في التقاط أنفاسي من هواء الغرفة.

جاءته فجأةً إحدى الأفكار الملهمة، فجاءني ببعض زجاجات المياه وألقاها على جسدي المتيبس، ولكن الأمر بدا بلا جدوى، كنت أتمادى

في التيبس، حتى لَأَنِّي شعرت ببعض العروق وهي تتجمد في داخلي، تمزقتْ ملابسي من شدة التيبس، ورأيت أشكال اللحاء وهي تلتف بإحكام حول جلدي الأملس، كانت تتشكل على شكل دوائرَ غير منتظمةٍ، ابتدأت أولا حول السرة حتى غطت منطقة البطن، ثم امتدت إلى الصدر والفخذين.

هرع إلى الشارع ليشتري زجاجاتٍ من المياه المعدنية خوفا من أن تكون المياه الملوثة قد تسببت في تدهور حالتي، ولكن عند عودته كان كل شيء قد انتهى تقريبا.

الجيد في الموضوع أن بعض أفرعي كانت قد امتدت أخيرا إلى خارج الغرفة، بعدما كسرت زجاجَ النافذة المغلَق منذ زمن.

طريق

كنا مقيَّدين نجر حملين ثقيلين فوق ظهورنا، كان كتف الواحد منا يكاد يصل إلى ركبتيه من شدة الثقل.

كان الطريق خاليا تماما من المارة، كأننا كنا وحيدين في هذا العالم الممتد أمامنا، لم نكن نسأل بعضينا عن الطريق، لم نهتم بوعورته ولا بالدم الذي انساب من كعوبنا الحافية فرطَّب القلب.

كان الطريق يسحبنا معه فنمضي، حتى بدأنا في الانفصال جزئيًّا عن حدود الأرض.

بدت لنا على مدى بعيدٍ من الرؤية عدةُ أبواب، لما اقتربنا منها وجدناها كلَّها موصدة، لكنا سمعنا صوتا ينادينا بأن نضع الأحمالَ التي فوق ظهرينا وننتظر.

وضعنا الأحمال صوب أكبر الأبواب وفككنا القيود، ومن يومها ونحن هناك ولم نكفَّ عن النباح.

باللمس

ربَّما لم يعد كفُّها يؤلمها إلى الدرجة التي تستدعي ذهابَها للطبيب، كانت تعلم هذا جيدا، لكن الذهابَ كان ضروريا جدا، فقد مضى على زيارتها السابقةِ ستةُ أشهر؛ لم يلمسْ أحدهم كفَّها لمرة واحدة ولو بالصدفة.

الأصوات

حين تعلو أصواتهما، تهرع أمي إلينا ككل مرة، تضعنا في المخابئ، وباستعجال تضع في يد كل واحد منّا ساندويتشا ليأكلَه وينام. تعطيني شريحةً من الجبن الرومي بلا خبز لأقرضَها، فقد عودتني على ذلك كي تخلصني من عادة قضم الأظافر التي لاحظتها مؤخرا، وتضع في يد شقيقتي ربع رغيف بلدي محمَّص ومدهون بمربى الفراولة كما تحبها، وتترك للرضيع كوبا من الحليب في أحد أكوابه الخاصةِ لتتأكدَ أنه لن يسكبه.

اعتدنا على هذا الطعام الذي لا يتغير أبدا في مثل تلك الأيام العاصفة التي نظلُّ ننتظرها فيها كثيرا حتى تأتي وتخرجنا من تلك المخابئ.

في الغالب كنا ننام لليلة واحدة على الأقل قبل أن تنادي علينا لنخرج، ولكن في بعض الأحيان كان الوضع يستمر لليلتين أو ثلاث. في إحدى المرات كانت الأصوات أعلى تقريبا من كلِّ مرة حتى لأنها نسيتْ أن تدخلَنا إلى المخابئ بنفسها، فانفلتنا إليها نحن بتلقائية.

غابت ليلَتها كثيرا قبل أن تأتينا بالطعام، وحين جاءت لم تكن كعادتها معنا، لم تنطقْ تقريبا، وزعت علينا الطعام وانفلتت بسرعة. لم ألحظْ أنها قد أخطأت ما بيني وبين الرضيع إلا بعدما جرِعْتُ كوب الحليب كلَّه في فمي، كدت أشعر بالأسى للرضيع الذي لن يجد ما يسدُّ به جوعه، إلا أنني قد لمحته وهو يقرض قطعة الجبن ويبتلعُها في جوفه في هدوءٍ على الرغم من أنه لم تكن قد نبتت له أسنان بعد!

ظللنا في المخابئ لعدة أيام أو ربما لأسابيع، كانت تلكَ هي أطولَ مدة قضيناها هناك، كانت تأتي أمي وتضعَ لنا الطعام دون انتباه، حتى جاءت في

يوم وطلبت منا الخروج، أخبرتنا أيضا أن الأصواتَ قد انتهت إلى الأبد، أخرجتنا، ولكنها دخلت مكاننا.

أصبحنا نأتيها كل يوم بالطعام، أنا أعطيها شريحةً من الجبن لتقرضها في الصباح بدلا من أن تقضم أظافرَها، وبعد العصر تحضر لها شقيقتي شريحةً من الخبز البلدي المحمَّصِ مدهونة بمربى الفراولة بالضبط كما تحبها، وفي المساء يمنحها الرضيع كوب حليب من أكوابه الخاصة ليتأكد أنها لن تسكبه.

كلاب جائعة

عند انتصاف الليل كنت في انتظاره عند أول الشارع كما اتفقنا، لكنه تأخَّر قليلا حتى بدأت بعض كلاب المنطقة في الظهور والنباح.

فتحت حقيبة يدي فلم أجد فيها ما يخلصني من هذا النباح الذي لا أحبه، فقد اعتدتُ في أغلب الأوقات أن أضع في حقيبتي لفافةً محشوة بقطع من اللحم المصنَّع كاللانشون أو السجق كي ألقيها لأي كلب يداهمني، فتجذبه رائحة اللحم النفاذة بعيدا عني.

لم يكن للأمر علاقة بالشفقة، ولكنها كانت إحدى الحيل التي تعلمتها من جدتي لأمي حين علمَتْ مدى خوفي من الكلاب، وأنني كنت أضطر أحيانا لتغيير مساري أو حتى إلغاء بعض المشاوير والعودة إلى المنزل خوفا من المرور إلى جوار تلك الكائنات المخيفة.

كان من الجيد أن الرجل قد حضر قبل أن يزداد خوفي وتتصاعد رائحة ارتباكي فتتحولُ الكلاب من حالتها المسالمةِ والمتوسلةِ إلى حالة أخرى تصبحُ فيها أكثرَ عنفا وشراسة.

مضى الرجل ومضيت خلفَه بلا أدنى كلمة، لكنني كنت أفتح حقيبةَ يدي كل نصف دقيقة تقريبا كي أتأكَّدَ من وجوده بالداخل، وفي كل مرةٍ كنت أتحسس بحذر نصلَه الحاد فيطمئن قلبي.

لم أر المقابر من قبل، فلم تكن أمي تحب زيارَتَها وفي المرات القليلة التي ذهبت فيها لزيارة والديها لم تصطحبني معها، كانت دوما تقول: «الفاتحة بتوصل من أي حته.»

وصلنا للمقبرة المعنية، لم يكن الإسمنت قد جف تماما، كما أن الرجل لم يكن قد أحكَمَ غلق تلك البوابة الصغيرة جيدا كما طلبتُ منه حسب الاتفاق.

لم يستغرق وقتا طويلا حتى أخرجَه من تلك البوابة الحديدية. لم أكن قد رأيتُه منذ عشر سنوات أو أكثر إلا صباحا حين جاءني خبر الوفاةِ فاضطرتني صلة القرابة للذهاب وتقديم واجب العزاء لزوجته وأبنائه، فُوجِئت أنهم لم يكونوا قد دفنوه بعد، فوجدتني مضطرةً للدخول وإلقاء نظرةٍ أخيرة عليه كنوع من المواساة.

طلبت من الرجل ألا يكشف لي وجهَه فلم تكن بي رغبة لرؤيته مجددا، أخبرته أن يكتفي بكشف كفيه فقط، لم أكن أعرف بالضبط أي يد قد فعلتها بي في الماضي، فقررتُ أن أقطعَ العشرة أصابع مكتملة.

أعطيته المبلغَ المالي المتفَقَ عليه، وطلبت منه أن يتركني معه على انفراد، ففعل الرجل وانصرف مبتسما وهو يردد: «ربنا يبرد قلبك!» ظنًّا منه أن ثمة علاقةً غرامية كانت تربطني به.

فتحت الحقيبة وأخرجت المقص، بدأت في بتر الأصابع التي أفسدت طفولتي وداهمتني أكثر من مرة.

في كل مرة كانت تفزعني فيها أصابعه كنت ألتفت إليه مذعورةً، فأجده غير آبه تماما بفعلته، فيزداد ارتباكي خاصةً مع جهلي بطبيعة تلك الفعال نظرًا لعدد سنوات عمري الصغيرة وقتها، فلم أعِ ما كانت تفعله بي وبملابسي تلك الأصابع –التي كانت تتجول في بيتنا بحرِية– إلا بعدها بسنوات طويلة، تكومت فيها داخلي مشاعر الغضب والكراهية إلى الدرجة التي جعلتني أصمم على بتر كل تلك الأصابع من يديه كما أفعل الآن.

أتممت المهمة وحشرت الأصابع المقطوعة بسرعة في حقيبة يدي، وأعدت دس يديه في الأغطية البيضاء كما كانت، عاد الرجل وأعاده إلى

مكانه، أعاد إغلاق الباب ولكن بإحكام أكثر في تلك المرة، ووضع بعض الإسمنت الجديد، مضى ومضيت خلفه، ولكني كنت أكثر بطأً منه، فقد شعرتُ ببعض النسمات الباردة التي أنعشتني فقررت أن أتباطأ قليلا كي أستمتع ببرودتها.

عند نهاية الشارع كانت الكلاب لا تزال تنبح كأنها لم تجدْ ما تسدُّ به جوعَها، فتحت حقيبتي بلا أدنى تردد، ألقيت الأصابع المقطوعةَ عند موضع قدمي تمامًا، واستمتعت بحركة الكلاب وهي تلعق حذائي ممتنةً على تلك الوجبة اللذيذة.

انتقام

(1)

تستيقظُ في الصباحِ فتدهسُ أحدَهم بقدميها كي لا تخطو على الأرض، يثبت آخر نفسه كخفينِ في قدميها الحافيتين، يحملُ آخر لها بعض المياه في كفيه لتغتسلَ ثم تمضي فوقَه بسعادة إلى المطبخ.

تفتح رأس تعيس الحظ القادم وتفرغها تماما كي تدق فيها فصين من الثوم تسحبهما من رؤوس الثوم المعلَّقة في رقبة آخر، وتستخدم ساق أحدهم كملعقة خشبية لتقليب حسائها الساخن، تصبُّ الحساء في كف أحدهم وتشربه على مهل، تغير ملابسَها وتثبت أربعة آخرين في مكان الأحصنة، تلهبُ أجسادَ الأربعة بالسياط وتمضي بالعربة.

(2)

تستيقظ مصطدمةً بإحدى ساقيه في مقدمة رأسها، تضع خُفَّيه بالقرب من الفراش كي لا يوبخها، تدقُّ بعض الثوم في كفيها كي لا تحدث صوتا، تستخدم ذراعَها في تقليب الحساء بدلا من ملعقتها الضائعة، تقسم نفسَها بالتساوي وتثبت نفسها بإحكام في مكان الأربع عجلات، تلفُّ نفسها بأقصى سرعة أثناء لفه للمفتاح وتشغيله لمحرك السيارة فيمضيان ككل يوم.

مدينة الملاهي

كانت الأم تراقب طفليها المعلقين في إحدى ألعاب مدينة الملاهي. كانا يشيران إليها وإلى أبيهما في سعادة، نزلا من تلك اللعبة وتنقلا بين ألعاب أخرى، جلست الأم أمام تلك اللعبة الأخيرة لتواصل متابعتها لهما، لكنها وجدت نفسها قد تورطت في متابعة اللعبة ذاتها.

كانت اللعبة على شكل امرأة ذات ملامح رومانية تدور وتحمل الأطفال معها وترفعهم إلى الأعلى، ربما ذكرتها اللعبة بجدتها لأبيها التي كانت تعود جذورها إلى رومانيا أيضا، كانت المرأة ضخمةً إلى الحد الذي يجعلك تشعر بالرغبة في الارتماء ما بين أحضانها، خاصةً حين كانت ترفعُ ذراعيها إلى الأعلى وكأنها ترحب باحتضان العالم أجمع.

لم تنتبه الأم للجلبة التي أحدثتها تلك المرأة التي كانت في الجوار، حين حاولت أن تجاذبها طرف الحديث، ولا لحبات الترمس التي وضعتها في كفها فتسربت من بين أصابعها المرتخية، كانت الأم شاردةً لدرجة أكبر من أي نوبة شرود أخرى مرت بها. كانت كثيرا ما تُصَاب بتلك النوبات، كان يتسلل إليها كثيرا شعور بالغربة، كانت تتخيل أنها لا تعيش أيامها بطريقة حقيقية، أنها تطفو على الحياة فقط كما تطفو المراكب على سطح البحر دون الولوج إلى العمق.

كانت تشعر طوال الوقت أنها اخْتُطِفَت من مكان أو من زمان لا تعرفه، ووضعها أحدهم هكذا في عالم لا يلائمها ولا تليق به، كانت تشعر أنها تؤدي أدوارا لا تناسبها، كأنها في مسرح لا تتناغم هي مع ديكوراته ولا حتى مع بقية الممثلين فيه.

لم تحاول أن تفتح فمَها لترد على تلك المرأة حين سألتها عن وظيفتها، لم تخبرها أنها تعمل طبيبةً في إحدى المستشفيات القريبة. شعرت أن وظيفتها لم تعد ذات بال الآن، كانت تشعر أن دوران تلك المرأة يجردها من نفسها، من اسمها ولقبها، بل ومن كل ما اكتسبته في تلك الحياة.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تمتنعُ فيها عن الرد على أسئلة الآخرين، بل كانت كثيرا ما تُوصَف بأنها امرأة متقلبة، وغريبة الأطوار، لا تحب أن تحيي أحدا في الشارع أبدا –مهما كانت درجة معرفتِها به– ولا حتى بمجرد ابتسامة، بل كانت قليلا ما تبتسم.

اعتادت أن تسمع انتقاداتٍ مستمرةً من الآخرين ووصفهم لها بالمغرورة، لكنها لم تكن تعير كلامهم أي اهتمام، كانت تعتقد أن حنجرتها تتعطلُ كثيرًا عن أداء وظيفتها، أو أنها تتحدث بلغة غير معروفة أو مفهومة، فتعلمتْ أن تتمسكَ أكثر بصمتها، بالضبط كما هي الآن شاردة ومأخوذة بحركات تلك الرومانية التي كان طولها يزداد حينا بعد آخر وبتنورتها الواسعة ذات الألوان الزاهية التي تدور معها وتساعدها أكثر على الارتفاع.

بدأ إحساسها باختلافها عن الآخرين هذا منذ الصغر، كانت طوال الوقت تتخيلُ أنها وُلِدت بمعجزة ما، لكنها لم تتعرف إليها بعد، حتى أحلامها لم تكن عاديةً، كان حلما وحيدا يتكرر عليها كل ليلة: أن لها جناحين يختبئان تحت ذراعيها لم تكتشفهما إلا مؤخرا، لكنها تتمكن من استخدامهما وترتفع بهما فوق رؤوس الناس، وتجوب سماء البلدة كلها في سعادة، وتذهلهم بجناحيها وقدرتها على الطيران، كانت تُصاب بخيبة أمل كل صباح حين تكتشف أنه لم يكن إلا حلما.

حين درست في حصة الدين أن فاطمة ابنة محمد لم تحِض؛ اعتقدت أنها قد اهتدت إلى معجزتها وأنها لن تحيضَ وستكون مثل فاطمة، لكن لم تمر عليها عدة أشهر حتى صارت لما تصير إليه البنات في ذاك السن، لم تصبْ يومها

بالفزع مثلهن، ولكنها أُصِيبت بالإحباط، إحباط بالغ لم تخرجْ منه إلا بعدما ابتدعت لنفسها معجزةً جديدة... «سأصبح مثل مريم، وسألد صبيا من دون أب.»

أعجبتها تلك المعجزة أكثر وحاولت أن تعد نفسها لذلك، كانت تقرأ وردا كبيرا من القرآن كل يوم، كانت تشبع ببضع تمرات في الوجبة الواحدة، كانت تحافظ على أداء كل صلواتها، بل كانت تضيف صلوات إضافية لنفسها كل فترة.

أصبحت لا تتوقف عن النظر إلى سقفِ غرفتها منتظرةً أن تنهمر عليها ثمار من الجنة، بدأت تصدق معجزتها حتى أنها كانت تتفحصُ بطنَها كل يوم أمام المرآة، وأحيانا كانت تشعر بالصبي أو النبي الذي يتحرك في داخلها فتبتسمُ، ثم بدأت تفكر في مكان مناسب في البيت لتنبتَ فيه تلك النخلة التي ستمسك بها يوم المخاض، حيث ستواجه أبويها بتلك المعجزة.

لكن الأيام والسنوات مرت بها عجافا، فقد استفاقت من أحلامها ومعجزاتها الوهمية لتجد نفسها في بيت رجل يُخيَّل إليها كثيرا أنها لا تعرفه، وإلى جوارها طفلان عاديان جدا يلتصقان بها.

انتهى الطفلان من اللعب وحملهما الأب على ذراعيه وناداها استعدادا للرحيل، استفاقت على صوته وعلى ضحكات الطفلين، لكنها كانت لا تزال تبدو كالمنوَّمة، لم تتجاوب معهم بأية كلمات، كان الزوج قد اعتاد على حالات الصمت والشرود التي كانت تتلبسها كثيرا ويعزي ذلك إلى ما قد تشعر به من إرهاق.

في اليوم التالي تركت أحد مرضاها مستلقيا على سرير الكشف نصف عارٍ، وركضت في شوارع المدينة متجهةً إلى مدينة الملاهي، سألت أحدهم عن المدير واتجهت إلى غرفته، طلبت منه أن يصنع منها لعبةً دوارة كتلك المرأة

التي كانت لا تزال تدور وترتفع من ليلة البارحة، الغريب أن المدير تفهم الأمر، أخرج لها إحدى التنانير المصنوعة من الصاج: «لقد طلبته منا إحدى الأمهات أيضا، بيد أنها لم تأت كي تستلمه.»

لف المدير التنورة حول خصرها، ثم ثبتها ببضعة مسامير حديدية، ثبت لها ذراعيها بقطعتين من الحديد المطلي، حملها على كتفه ووضعها في مكان رآه مناسبا، شعرتْ بالسعادة حين ابتدأت تنورتها الجديدةُ في الدوران والاتساع، وارتفعت، وارتفعت...

مسامير

كان يثبتها بمسمارين في الحائط كل يوم ليتأكد أنها لن تهرب منه أثناء الليل، وحتى بعد رحيله بسنوات ما زالت تعرفُ مكان الثقبين الموجودين في أعلى ظهرِها وتتدلى روحها منهما كل يوم من نفس المكان في الجدار.

كرنفال

كنت أضع نقودا زائدة في جيوبي كل يوم. كنت أحلم أن أشتري حلوى كي أوزعها على كل أطفال البلدة، كانت تطاردني وجوهُهم يوميا، تدهشني البراءة العاجزة عن مواجهة الحرمان، كنت أتحسسُ جيوبي كل يوم وأعتزم شراءَ المزيد، لكن ترددي وخوفي من ردود فعل الأطفال وذويهم كانا يمنعانني من توزيع حلواي.

تراكمت الحلوى في جيوبي التي أخذت في الانتفاخ مما اضطرني لتوسيعها وتوصيلها بأقمشة إضافية أكثرَ من مرة كي تتحمل كل تلك الكميات التي كنت أشتريها.

بعد فترة بدأ ثقلُ جيوبي يؤثرُ على اتزان خطواتي مما ساعدَ على تعثري أمام مقدمة سيارة طرحتني أرضًا بغير عمد.

حملني بعض الغرباء فوقَ أكتافهم بطريقة زادت من أوجاعي، لكني انشغلت حينها بفرحة الصغار الذين كانوا يمرون من تحتي وهم يتهافتون على التقاط ما كان يتساقط مني.

متعة

حباية زرقا، وصباع روج... أو قلم كحل، وكريم لإزالة الشعر... في تلك الأشياء فقط كانت تنحصر طلبات الزبائن كل خميس في الصيدلية.

في البداية كانت تُصَاب بالإحراج خاصةً إذا ما جاءها الرجل بنفسه أو سألتها إحدى الزبائن عن فياجرا حريمي، فكرت في أن تغلق الصيدلية في الخميس من كل أسبوع، وقامت بذلك بالفعل لعدة أسابيع متتالية لكنها لم تطق وعاودت فتحها.

بدأت تحصي حبات الفياجرا التي صرفتها في آخر كل خميس وتحاول أن تتخيل!

لعنة الأكياس

كانت الأكياس تشدُّها من ذراعيها كل يوم نحو الأرض، الأكياس التي كانت تحملها طوال الوقت من محلات البقالة ومن بائعات السوق وأفران الخبز.

كل يوم كيسان على الأقل يتدليان من كفيها ويشدانها نحو الأرض، لم تدرك أن ثقلَ الأكياس كان سيؤذيها إلى تلك الدرجة.

في البداية ظنَّتْ أن قامتها قد نقصتْ ثلاثة سنتيمترات بفعل الزمن وازدياد معدلات الهدم عن البناء كما كانت تعرف، لكنَّها فُوجِئت بعد فترة بأنها قد اضطرتْ لتقصير بناطيلها بما يعادل شبرا كاملا في الطول.

بدا الأمر أكثر إزعاجا حين لم يتوصل الأطباء لتفسير مُناسب لظاهرة التقلص التي بدأت تعاني منها، جربت العديدَ من الأدوية والوصفات، لكن حمل أي كيس جديد ولو فارغًا كان يعني فقدانَ المزيد من السنتيمترات، بعد يأسها من العلاجِ قررت أن تمارس حياتَها بشكل طبيعي وألا تلتفتَ لتلك الظاهرة الغريبة.

ظلت تقصر ملابسَها كل أسبوعين تقريبا على أمل أن يقفَ طولها عند حد معيَّن كما أخبرها أحد الأطباء، لكن لعنةَ الأكياس ظلتْ تطاردُها حتى بعدما امتنعت عن حملِها، فقد ازدادت قامتُها قصرا لدرجة أنها كانت تحتاج أن تقفَ على أحد الكراسي كي تحضِّرَ الطعام أو لتغسل المواعين، ثم نقصتْ قامتها بدرجة أكبرَ فأصبح أحد الصغار يحملها على يديه ويضعها على حافة البوتجاز لتصنعَ لهم الطعام.

انتشلها ابنها الأكبر في مرة من الحوض بعدما كادت تغرقُ في إحدى الحلل التي كانت تحاول جاهدةً أن تدعكها بسلك المواعين الذي تشابك مع ملابسها وأسقطها في داخل الحلة.

بعدما أصبحتْ عاجزةً عن أداء أبسط مهامها اليومية اضطر الأب للاستعانة بخادمة.

تمادت الأم في الصغر حتى غدت غير ملحوظة، لدرجة أن الأبناء صار الواحد منهم يتندر للبقية إذا ما لمحها، ويظلُّ يقسم لإخوته ويصفُ لهم كيف صار شكلُها وحجمها، حتى أن أصغر الأبناء قد اشترى عدسةً مكبرة ومضى يبحث عنها في شقوق الجدران وعلى أحرف الشبابيك والسجاجيد على أمل أن يراها، ولكن بلا جدوى.

آخر مرة لمحها أحدهم كانت تجمع حبيبات من مخزون الأرز وكانت تحمل فوق رأسها حبة أرز بدت ضخمةً جدا بالنسبة لحجم رأسها الصغير مقارنة بالنملات اللائي كن يتحركن معها بانتظام في نفس الصف.

الطريق الآخر

– مع السلامة.

– خلي بالك، ومتروحيش من ناحية شريط القطر.

– حاضر.

كانت أمي لا تحبُّ هذا الطريق الذي أضطر فيه لعبور طريق القطار والمشي فوق قضبانه الحديدية، كانت تخشى من الحوادث، فالمزلقان لا يُوجَد عليه عامل أو إشارة لتنبيه المارة عند مجيء القطار، وكل عدة أشهر كنا نسمع عن حادث يفقد فيه أحد المارة حياتَه أو على الأقل ذراعَه أو إحدى ساقيه.

كنت أشعر ببعض الأسى لصاحب الحكاية على الرغم من عدم تصديقي لها، فقد كنت في هذا العمر لا أميلُ لتصديق الحكايات السيئة، ولا أؤمن بحدوثها، على عكس القصص الخيالية التي كنت أقرؤها في مكتبة المدرسة فأصدقها، وحين كانت أمي تؤكدُ لي إصابة أحدهم كنت أعتقد أنه أُصِيب فقط لأنه صدق الحكاية.

كان الطريق الآخر أطول وأكثر مللا من طريق السكة الحديد المختصر، كان من الممكن أن أمضي صباحا من الطريق الطويل، ولكن لم يكنْ من الممكن أبدا أن أعودَ منه لأن الطريق الأقصرَ كان هو المفضل لدى حسن؛ زميلي في الفصل، والذي كان يسكن بعدنا بشارعين، كنت أسير معه شارعا منهما وأتركه عند الآخر كي نزيدَ قليلا من الوقت الذي نتمشاه معا أثناء العودة.

كنت أنا وحسن نتنافس داخل الفصل على المركز الأول في كل شيء، كنا نتسابق خاصةً في حل مسائل الحساب؛ من يحلها أولا فهو الرابح.

في مرة امتدحني الأستاذ زكريا موجِّهًا له الكلام: «وفاء أشطر منك!» فبكى حسن، واندهشت يومها، لو كان الأمر معكوسا لربما شعرت ببعض الغيظ، ولكني لم أكن لأبكي! ولكن اندهاشي لم يمنعني يومها من إخراج لساني له كعادتنا معا.

في الفسحة كنا نلعب لعبة الطيارين، إما أن يطير الأولادُ وتمسك بهم البنات أو العكس، في كل مرة كانوا يطيرون فيها كنتُ أركض خلفَ حسن لأمسك به، كنت أشعر بزهوة الانتصار حين أمسك به وأضمُّه لزمرة الأولاد الممسوكين.

كان أحيانا ما يتخابث عليَّ ويطلب مني أن أتركه حتى يعدلَ من هندامه الذي فسد من سرعة الركض واللعب، وحين كنت أسمح له بذلك كان يغافلني ويركض مرة أخرى.

كنا نتشاجر ونتخاصم كثيرا، ولكن في نهاية كل يوم كنت ألملم حقيبتي وأنتظره عند باب الفصلِ لنمضي معا في طريق العودة.

كنا نفترق عند شركة بيع المصنوعات التي كانت وقتها تُعتبَر من أكبر المتاجر الموجودة في بلدتنا، كانت تتكون من خمسة طوابقَ، وهناك في الداخل كانت توجد نجفة كبيرة الحجم؛ تتدلى من سقف الطابق الخامس وتمتد حتى الطابق الأرضي، كنت أتحايل على أمي لتأخذني معها كلما ذهبتْ إلى هناك، كنت أحب الفرجة على تلك النجفة العملاقة، وأتابع جمالَها أثناء صعودي على السلم الذي كان يلتف حولها كحارس.

الفاترينة الخارجية للشركة كانت مقسمةً لعدة أقسام كالمفروشات والملابس والأحذية. كنا نقف طويلا أنا وحسن أمام الفاترينة الخاصة بلعب

الأطفال، أنا أتأمل لعبة العروسة ذات الثلاثة فساتين وحقيبة اليد والمشط، والحذاءين الصغيرين، وهو يتأمل لعبةَ كرة القدم المثبتة على طاولة يمتد من جانبيها عدة أذرعٍ للتحكم باللاعبين والكرة، كنت أصف لعبتَه بالسخيفة ويصفُ لعبتي بالسًاذجة.

كنت أحيانا أقف أمام الفاترينة بعد انصرافه لساعة كاملة أتأمل العروسةَ وأتخيل نفسي وأنا أغير لها فساتينها وأحذيتها، ثم أمشط لها شعرَها الملوَّن، ولكني كنت أشعر بالإحباط كلما وقعت عيني على الورقة البيضاء المدون عليها سعر اللعبة: سبعة وعشرون جنيها، كان هذا المبلغ أكبر حتى من أن أحلم بالحصول عليه، فلم يكن مصروفي وقتها قد تجاوز الخمسة والعشرين قرشا، وكانت فكرة أن أطلب من أبي أن يشتريها لي فكرةً غير واردةً...

فقبل ذلك بعامين، اصطحبنا أبي أنا وإخوتي لأحد محلات الألعاب، وطلب أن نختار ألعابا على مزاجنا، وحين اخترت إحدى العرائس رفَضَها أبي بسخرية مدعيًّا أنني لم أعد صغيرة لألعب بتلك الدمى التافهة، يومها أعدت العروسة لمكانها، وعاودت البحث ولكن في تلك المرة كنتُ أبحث عن لعبة تتناسب مع مزاج أبي.

في أحد الأيام، كانت أبلة خيرية مدرسة الدين توزع علينا نتائجَ اختبار الشهر، منحتني ورقةَ الاختبار الذي صححته للتو وهي غاضبة، لقد أنقصتني أربع درجات من عشرة، أُصِبت حينها بالذهول، كنت أعرف أنني لم أخطئ إلا في إجابة سؤال واحد، لكنها تعنتت معي في السؤال الخاص بمعجزات سيدنا عيسى.

كنت أحفظ المعجزات جيدا، كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخبرهم بما يدخرون في بيوتهم، لقد كتبتها هكذا بالضبط لكنَّها لم تحتسب لي أية درجات، وحين سألتها تجهمت في وجهي وأجابتني في غضب: «مكتبتيش (بإذن الله) بعد كل معجزة!»

شعرتُ وقتها بالخنق والظلم خاصةً بعدما عاقبتني بأربعة خبطات على كفي، لم أبك بعدها كالآخرين، كل ما كنتُ أشعر به هو كرهي لتلك المعلمةِ ولمعجزات عيسى التي تخلتْ عني رغم حفظي لها.

في نهاية اليوم الدراسي انتظرتُ حسن عند باب الفصل ككل مرة، ولكنه ابتعد عني مسرعًا.

– مش هنروح مع بعض؟

– مبروحش مع عيال خايبة!

حينها فقط دمعت عيناي وسحبتني قدماي إلى الطريق الأطول.

مرت عدة أيام لم نتكلم فيها معا ولو نصف كلمة، حتى في الفسحة كنت لا أنزل إلى حوشِ المدرسة كي أشاركَهم اللعب، كنت أكتفي بالفرجة عليهم من نافذة الفصل، كنت أحمل حقيبتي عند انتهاء الحصص وأمضي مسرعةً قبل أن ينتهي هو من جمع كتبه وكراساته، حتى كانت مسألة الحساب التي لم يعرف حلَّها أحد سواي، ليعاود أستاذ زكريا الكرة وينظرَ إلى حسن مجددا: «وفاء أشطر منك!»

لم يبك حسن يومها، حتى لأني اندهشت لما رأيت ابتسامته. انتهى اليوم الدراسي ووجدته قد سبقني إلى الباب: «مش هنروح مع بعض؟»

فأجبته في عتاب: «ماشي!»

وحين وصلنا إلى الفاترينة التي سنفترق عندها نظر إليَّ مبتسمًا: «على فكرة، لعبتك حلوة!»

دخان كثيف

تحاول أن تضغط بيديها على إسفنجة التنظيف بطريقةٍ أقوى كي تزيلَ تلك البقع المتناثرةُ على الحائط، لا تشعر أنه يراقبُ حركاتها إلا حينما يطلب منها ألا تنسى تنظيفَ الأتربة الموجودة فوق أحرف الأبواب، والتي تهملها كل مرة.

لا تبدو كخادمةٍ في جلبابها المصنوع من القطيفة الناعمة، لكنها تنصاع لأوامرِه بإيماءة خاسر، تنتهي من أداءِ بعض المهام المسنودة إليها وتقرر إرجاء البقية لوقت آخر، خاصةً وأن مفاصلَها كانت قد بدأت تشتكي من كثرة الدعك والإنحناءات.

ترص الأطباقَ لطعام الغداء، يحاول أن يثني على الطعام فلا تشعرها كلماته بشيء، يسقط صحن الشوربة عليها فتكتم صرختَها بحركة من يدها ولا يحاول هو أن يسألها، رغم الدخان الكثيف المتصاعد من فخذيها، تنهضُ من مقعدها لحمل الأطباق، فينادي عليها مدعيًا أنه لا داعي للتعجل في غسيل الصحون وترتيب المطبخ، ينطق كلماته تلك وينظر لها بطريقة تفهمُها جيدا، فتغير اتجاهها بعيدا عن المطبخ وتفتح درجا بعينه وتختار أحد قمصان النوم الطويلة كي تتأكد أنه لن يرى جلدها المسلوخ.

زينب

(حاصلة على المركز الأول في مسابقة ربيع مفتاح الأدبية للقصة للقصيرة عام 2017)

دارت على كل بيوت البلدة، بل وعلى بعض بيوت البلدان المجاورة، تبحثُ عن الفتاة المناسبة ذات المواصفات الخاصة، عدة أشهرٍ مضت وهي تفكر وتخطط، تكتب كلَّ يوم ورقة مواصفاتٍ جديدة ثم تمزقها، تلعن اليوم الذي صارحها فيه الوجيه برغبته في الزواج.

– جواز إيه دلوقتي يا ابني؟

– إللي من دوري عيالهم ماشية جمبيهم يا حجة!

– وإنت باغي الجواز للخلفة والا للمزاج يا عين أمك؟

يحني رأسه من الخجل متمنيا أن تبتلعه الأرض في تلك اللحظة ويرد متلعثما:

– إللي تحسبيه بقا يا ست الكل.

ويخرج مسرعا من حجرتها، فتلعنه في سرها وتلعن بنت الحرام التي ستشاركها فيه، وتردد: «الوجيه ابن صفية، لسه متخلقتش اللي تستاهله!»

تعيد كتابة المواصفات من جديد وتهتدي لمبتغاها بالصدفة في فرح إحدى قريباتها، كانت العروس فتاةً عادية للغاية لا تلفت نظر من تقع عليها عينُه بأي شيء، بشرتها قمحية تميل للسمرة لكنها لا تملك جاذبيةَ البنات السمر، ولا تمت لذوي البشرة البيضاءِ بصلة، قوامها معتدل؛ لا تبدو فيه أي مواطن

للإغراء أو هكذا تمنت، فأم العروسِ لم ترض أن تعري لها ابنتها كما طلبت صفية.

– تبقا البت معيوبة!

– يا حجة، لو جوزها عاب عليها حاجة يردهالي ف صباحيتها!

تتفحصها جيدا قبل أن تعرضها على الوجيه، تشعر بالارتياح كلما مرت بعينيها على صدرها الهزيل وتبتسم للجسد الذي لا تظهر عليه أي ملامح من الطراوة أو الجمال، الشعر مجعد إلى درجة مقبولة والعينان ضيقتان كي لا تسحره بهما، حتى صوتها لم يبدُ عليه أنه على درايةٍ بدلال البنات وغنجهن.

تربت على كتف البنت: «ربنا يطرح فيك ذرية الوجيه!»

لا يعترض الوجيه على اختيار أمه، ربما لم تعجبه، ولكنه أيضا لم ينفر منها، يتمم مراسم زواجه بعد شهر واحد، ف«الخطبة الطويلة تفسد العقول وتجلب البلا.» كما تقول صفية.

جهزت له شقةً في الطابق الذي يعلوها مباشرة، فرشتها بأفضل الفرش، ف«الوجيه هو البكري اللي أحسن م الكل، بس متجالسوش مره غير أمُّه، اللي يتجوزها تحبل وتولد وبس.» تكرر تلك الجمل على نفسها كل ليلة وكأنها تؤكدها لنفسها أولا.

غاب عنها الوجيه يوم صباحيته، لم ينزل في السابعة كما وعدها، انتظرته حتى العاشرة، ثم جُنَّ جنونها واتصلت به، كان يقبل يديها بعد دقيقتين بالضبط.

– من ليلة واحدة نسيت أمك؟!

– وانا أقدر يا أمي؟ ده إنت الخير والبركة!

لم تشعر بارتياح حتى بعدما تناول فطوره وشرب شايه معها تاركا عروسَه لحالها بالأعلى، خافت من تلك اللمعة التي رأتها في عينيه.

– هيعشقها ابن صفية؟!

إحساسها لم يخنها، كل يوم كان يرتبط بامرأته وببيته أكثر، كان يختلق الحججَ ليترك مجلسها وكلامها الذي لا ينتهي عن أخبار الدكان أو مشاكل بقية أشقائِه، لم تستسلم لتلك المرأة التي أصبحت بالفعل تشاركها فيه.

أصبحت تختلق المشاكلَ لهما كل يوم، لم تعد تستطيع أن تغمض عينيها إلا بعدما تسمعُ صوت شجارهما، ثم تتأكد من ذبول عينيه أن مكيدتَها قد أفلحت، كانت زينب فتاةً عادية جدا كما اعتقدت الأم، لكن كان لها نهدان يضيئان بقوة كلما أظلم الوجيه الحجرة، بهته النور الذي انبعث منهما حين رآه لأول مرة، لم يعرف كيف يضيئان ويلمعان هكذا رغم لون بشرتها الداكن.

بمرور الوقت، نهداها كانا يكبران ويستديران ويتملكانه بالوهج الصاعد منهما، في كل مرة كانت أمه تختلق سببا للوقيعة بينهما، كانت زينب تخاصمه وتفرد نهديها أمامه بعد أن تظلم الحجرة، وتتلذذ بذلِّه لها كي ترضى عنه، وتسمح له بلمسهما أو حتى تشمم رائحتيهما عن قرب.

لم تهنأ صفية لليلة واحدة بعد زواج الوجيه الذي لم يعدْ معها كما كان قبل زواجه أبدا، فبعد كل مكيدة كان يتمادى هو في الذبول ويزداد وجه زينب بالوهج والسطوة.

هداها شيطانها في مرة للفكرة التي ستنهي بها كل شيء وستمكنها من التخلص من تلك اللبؤة التي أسرت البكري وملأت قلبه بالقسوة عليها، حكت له أنها رأت السيد أخاه الأصغر خارجا من شقته بالأمس أثناء وجوده هو في الدكان.

ظلت تحكي كيف لاحظت هي الحكاية من فترة، وكيف كانت تلاحظ تدللَ زينب على السيد وتقربها منه.

– مكانتش تستحي، تحك جتتها ف جتته ف الرايحة والجاية، وتتقصَّد تلبسله المكشوف والشفاف، أخوك غلبان برضك، هيا اللي ملعب، مطمرش فيها الحلال.

لعب الشيطان برأس الوجيه لما تخيَّل أن السيد قد تطلع ولو من بعيد لصدر زينب المكشوف، شده من قميصِه ثم جرجره على السلالِم ودخل به إلى مخدعِ زينب التي كانت تتربعُ في وسطه كإله على دراية بكل ما يدور.

لما غاب الوجيه وشقيقه بالأعلى، اختلجَ صدر صفية، وسحبتها قدماها إلى الطابق الثاني، كان الوجيه راكعا أمامَ فراش زينب مطأطئ الرأس وفي يمينِه رأس السيد الذي تمددَ جسدُه المنحور على يساره.

كان النور الذي تراه صفية لأول مرة ما زال ينبعثُ من صدر زينب التي حدجتها بنظراتٍ أوقدت نارا ما بين لحمِها وجلدها، فصرخت، وركضت بسرعةٍ وهي تموء كقطة مذبوحة على السلالم التي تعثرتْ عليها عدة مرات، حتى لَأَنَّها قد اضطرت لاستخدام يديها لتساعداها في النزول، وظلت تموء بعدها لعدة سنوات حتى ماتت.

بدون تذكرة

كانت عمتي تقف على تبة عالية، كانت ترتدي جيبةً بمربعات صغيرة متداخلة، تتدرج ألوانُها ما بين الأزرق الفاتح والزهري والأسود، كانت هناك كسراتٌ واسعة تمضي بطول الجيبة التي انتهت عند منتصفِ ساقيها تقريبا. كان يقف إلى جوارها طفل لم يتجاوز الثامنةَ من عمره، ربما كانت تدرسه لأنني لمحت قطعةً من الطباشير الأبيض في يمناها.

لم أكن قد رأيتها منذ حوالي عشرين عاما، لم يتغير خلالهم الكثير، بل كان من الجلي أنها قد ازدادت حيوية ونضارة عن ذي قبل بالرغم من أننا لم نلتقِ أبدا خلال كل تلك المدة، إلا أنها لم تكن في حاجة إلى وقت طويل كي تتذكرني وتأخذني في حضنها كعادتها.

كانت تقف قبالتي كامرأة أربعينية ما زالت تتضح على قسمات وجهِها المدوَّر بعض ملامح الأنوثة. كان نهداها راقدين في هدوء داخل صدريتها المحكمة.

أخبرتني أنها قد حصلت أخيرا على ثدي جديد، بل وأنها قد استبدلت الأيسر القديم أيضا كي تضبط شكل الفساتين والبلوزات. شعرت بالرضا لتلك السعادة التي كانت تشعر بها، فمنذ مرضها الأخير وأنا كنت أتحاشى النظرَ إلى ذاك الجزء الفارغ في صدرها كي لا تسبب لها دهشتي أي إحراج.

كانت تبدو بالفعل سعيدةً لرؤيتي، لكن تلك السعادة سرعان ما تبددت حين توجهتُ بسؤالي لها عن أبي.

– معرفش عنه حاجة!

– إزاي؟ مش هو جه عندكم هنا؟

– آه، بس خلاص معادش حد بيشوفه.

– إزاي؟ مش كلكم هنا مع بعض؟

– أبوك لا يحب القوانين ولا تحديد المواعيد. ألا تذكرين هروبَه من الكلية العسكرية التي أجبروه على الالتحاق بها في شبابه؟

– هل هرب من هنا أيضا؟

– بيهرب كتير ويرجع، بيلاغي الحرس ويهرب، كفايا يغنيلهم أي كوبليه من الغناوي القديمة بتاعة الست، الحارس من دول يتسلطن ويسيبه يروح مطرح ما هو عاوز، مش فاكرة لما كان زمان يركبنا الأتوبيس من غير تذاكر والّا حتى الطفطف بتاع راس البر؟ كان يقعد يغني للكومسري، وانتو تردوا وراه وشوية شوية نلاقي الركاب قاعدين يسقفو ويغنو لحد ما السواق يشاور للكومسري ويقول له خلاص، ساعتها يفضل أبوكي يتحايل عليهم ياخدوا الفلوس وهو متأكد إنهم عمرهم ما هياخدوا منه حاجة.

كانت تتحدث عنه وعن أفعاله بكراهية لم أعهدها فيها، لكني سألتها مجددا:

– هل تعرفين أسماء بعض الأماكن التي قد أجده فيها؟ فالمكان هنا غريب وواسع، وأخشى ألا أجده.

– معرفش.

قالتها باقتضاب وأدارت ظهرها لي وانصرفت.

صرخت فيها:

– من فضلك، أخبريني فقط من أين أبدأ البحثَ؟ كيف أجده؟ فأنا في حاجة ماسة لرؤيته.

لم تلتفت لي، ولكن صوتها وصلني وهي تلعنني بغضب قائلةً:

– قبل أن تأتي إلى هنا للبحث عنه كان عليك أن تموتي مثلنا أولا أيتها الغبية.

بالمثل

نادت على السائق الذي أوصلها للتو، طلبت منه أن يحضر لها الكرسي البلاستيكي من شنطة السيارة، أحضره وفتحه لها وتركها لتجلس على راحتها.

جلست والتقطت أنفاسها أولا ثم ألقت تحيتها عليه، ظلت صامتةً لفترة قبل أن تفكر في الكلمات التي ستنطقها، حاولت أن تضع ساقًا فوق الأخرى ولكنَّ الخشونة التي أصابت مفاصلها نتيجة التقدم في العمر وزيادة وزنها لم تساعدها على ذلك.

بدأت في الحكي عن مشاكل الأبناء وزياراتهم المتباعدة لها، حكت عن الكثير من الأشياء رغم علمِها أنه لن يرد عليها ولكنها فقط الحاجة إلى الكلام، فمنذ دخوله في الغيبوبة وهو لا يرد ولا يشعرُ بوجود أحدٍ رغم تأكيد البعض عكس ذلك.

كانت تشعر ببعض الرضا لأنه أخيرا قد جاء عليها الدور لتتحدث حتى لو كان حديثُها إلى طرفٍ غير ناطق، فلم يكن من المسموح لها أن تتكلمَ أو أن تعارضه في شيء من قبل، ربما لهذا لم يتحمل مرضَه الأخير كثيرا، خاصة وقد أصبحت هي المتحكم الوحيد في كل شيء: ترتب مواعيد الأطباء، وتحدد مواعيد للزيارة ولا تستثني أحدا منها أبدا مهما كانت درجة قرابته.

لأول مرة صارت تتحكم في مصروف البيت، تختار الأطعمةَ وتشتري كل شيء على مزاجها، فالجلطةُ الأخيرة أفقدته القدرة على التحكم في الكثير من أعضائه كعضلات فكيه، فلم تعد كلماته البسيطة مفهومة إلا قليلا. كانت تتظاهر أحيانا كثيرة بعدم الفهم كي لا تنفذ له ما يريد.

كانت سعيدةً لأنها صارت تتحدث طوال الوقت وبمنتهى الحرية ودون أن يوقفَها أحد، لم تعدْ تتحكم في أمور البيت فقط بل تتحكمُ فيما كل يخصه هو أيضًا: في ملابسه ووقت إطعامه، وحتى برامج التليفزيون كانت تختارها دون اعتبار لرأيه، كان خضوعه التام لها وعدم قدرتِه على النطق وعجزه عن الحركة يرضيها بالضبط كما تفعل رقدته الآن.

تنهي وردَ القرآن الذي جاءت لتلاوته وتمسحُ بيديها على الباب الحديدي الأخضرِ الصغير وتسقي الصبارة الموجودة في الجوار وتمضي بعدما تخبرْه أنها ستجيئ في ذكراه القادمة في العام التالي كأرملةٍ صالحة.

جلسة مناسبة

كنت في السابعة تقريبا حين بدأت أبحثُ عن جلسة تناسبني، حدث هذا حين بدأت أنتبه للطريقة التي يجلس بها الكبار من الأقارب، وبالأخصِّ النسوة منهن.

لم تكن لأمي جلسةٌ معينة لأقلِّدَها، كنت أحب فقط تقليد ضحكتها، كنت في السادسة حين قلدتُ ضحكتَها لأول مرة، كنت قد تعرفت للتو إلى صديقةٍ جديدة بالمدرسة وتبادلنا معا أرقام هواتفنا الأرضية، انتهزت الفرصةَ وأطلقت ضحكتي العاليةَ في محاولة لتقليدها، ولكن أمي جاءت مسرعةً وغاضبة من إحدى الغرف لتنهرني على تلك الضحكة الصاخبة.

– لا يجوز أن تضحكي بتلك الطريقة، ما زلت صغيرة!

لم أفهم يومها سبب الغضب، ولم أفهم لم عليَّ ألا أكررها مرةً أخرى على الرغم من إعجابي بها؟ وكيف لم تعجبها ضحكتي وأنا كنت فقط أقلِّد ضحكتها؟

في أحد الأيام اصطحبنا أبي إلى بلدته الريفية لحضور فرح ابنةِ أحد الأقارب، دخلت أنا وأمي إلى المكان الذي تجمعتْ فيه النسوة، قدمت لنا إحدى السيدات الطعام، دائما كان الطعام هناك عبارةً عن أرز ولوبيا ولحم أحمر، ثلاثة أصناف محددة كانت تُقدَّم في الأفراح والمآتم على حد السواء.

تناولت كأمي ملعقتين صغيرتين كنوع من المجاملة، وبدأت في متابعة طقوس الفرح، العروسُ جالسةٌ بفستانها الأبيض اللامع على أحد الكراسي والنسوة والبنات الصغيرات جالسات حولها، إحداهن تربط إيشاربا تحت

خصرِها بقليل وترقص... لم تشدني رقصاتهن ولا أغانيهن المبهجة بقدر ما شدتني طريقة جلوسهن على الكراسي أو حتى الكنب البلدي المرصوص جنبا إلى جنب، كانت بعض السيداتِ خاصةً الكبيرات منهن في السن يجلسن وهن يباعدن ما بين أرجلهن بدرجة كبيرة للغاية، كن يصنعنَ بأرجلهن زوايا منفرجةً شديدة الانفراج.

في اليوم التالي حاولت أن أقلد طريقتهن في الجلوس، لم أكن قد أعجبت بجلستهن تلك، ولكني كنت أريد أن أجربها فقط، جلست على أحد كراسي الأنتريه وباعدت ما بين فخذي قدر استطاعتي، كانت الجلسة مؤلمة، حتى فكرت في التخلي عن فكرة التجربة، ولكني عاودت المحاولة، وكالعادة لمحتني أمي التي صرخت فيَّ:

– عدلي من جلستك! لم تجلسين بتلك الطريقة السيئة؟ لا يجوز أبدا!

– رأيتهن يجلسن هكذا في الفرح!

– إنهن متزوجات وأنت ما زلت صغيرة، صغيرة جدا على هذه الأشياء.

كالعادة كانت أمي غاضبةً، وكالعادة كنت لا أزال أحمل العديد من الأسئلة في رأسي.

هل كانت أمي تعني أنني عندما أكبر وأتزوج سأجلس مثلهن؟ وهل ستصبح الجلسة أكثر راحةً؟ ولكن أمي نفسها متزوجة، ولم أرها أبدا تجلس بتلك الطريقة!

حين ذهبنا بعدها لحضور أفراح أخرى أصبحت أشعر بالشفقة على هؤلاء المتزوجات اللائي لم يعد بإمكانهن الجلوس إلا بتلك الطريقة التي وصفتها أمي بالقبيحة.

كنت أتخيل أنهن لن يتمكنَّ بعد ذلك من الجلوس أو حتى المشي بطريقة عادية مطلقا، وأن سيقانهن وأفخاذهن بمرور الوقت ستتيبس على هذا الوضع وقد يحتجنَ لمن يحملهن وهن على تلك الأوضاع الغريبة التي لن يتخلصن منها إلى الأبد.

لكم تمنيت وقتها لو أمسكت بكل فخذين متباعدين وضممتهما معا كي تبدو أشكالُهن أكثرَ جمالا.

في إحدى العطلات الصيفية جاءتنا إحدى قريبات أمي من طنطا للمبيت عندنا لمدة أسبوع، كانت قد بدأت تجهز نفسَها لدخول كلية الطب، ورغبت بالاطلاع على مكتبةِ أبي الطبية واقتراض بعض الكتب، كانت قريبتنا تلك جميلةً ورقيقة، ربما كانت أجمل من عرفت في تلك الفترة، فأصبح مهمًّا أن أراقب طريقة جلستها أيضا.

كانت تفرد ظهرها جيدا وتضم ركبتيها إلى حد الالتصاق ثم تضع ساقيها في جانب واحد مع ثنيهما قليلا إلى الأسفل، كانت جلستها متناغمةً مع رقتها وجيباتها الحريرية التي تصل إلى منتصف ساقيها.

خضت محاولةً جديدة وقلدت طريقتها في الجلوس، كنت سعيدةً في البداية خاصة أن أمي لم تبد أي اعتراض عليها، ولكن بمرور الوقت صرت أشعر بالضيق كلما جلستُ بتلك الطريقة وببعض التيبس في ركبتيَّ وساقي بالضبط كما لو كانت تلك الجلسة لا تخصني.

لسنوات عديدة قلدت عدة جلسات لقريبات ومعارف حتى نسيت الأمر تماما، وفي أحد الأيام بينما كنت أستذكر بعض دروسي المدرسية وأمي جالسة أمامي تشرب شايها فُوجِئت بها تقول:

– سبحان الله! تجلسين بنفس طريقة أبيك!

بدأت بعدَها في ملاحظة أبي الذي لم أفكر أبدا في مراقبة طريقة جلوسه، كان يطوي إحدى ساقيه تحته ويضع ساقه الثانية فوقها...

تلك كانت بالفعل جلستي المفضلة!

دمية

منذ أن جاءت إلى هنا ملفوفةً بطبقة من السيلوفان الشفاف وعليها تلك الفيونكة الحمراء، وتلك السيدة الكبيرة لا تتوقفُ عن ضرب ظهرها بكلتا يديها كي تظلَّ تردد لها كل يوم نفس الكلمات التي تريد أن تسمعها، وطفلها البالغ لا يكف عن اللهو بكلتا ساقيها محاولا إبعادهما عن بعضهما البعض بطريقة يظنُّها مسلية...

حتى الصغار يتهافتون على الضغط على بطنها، ولا يتوانون عن ركلها بأقدامهم وشدِّها من شعرها كلما توقفت عن الغناء، ولم يبذل أي منهم أي جهدٍ لقراءة تعليمات التشغيل التي كانت معها في البداية ولا حتى اختبرَ مدى صلاحية بطارياتِها لكل ذاك العبث.

ذاكرة هلامية

«أنت في حاجة إلى مبرمج جيد!» ... هكذا قالت لي مريم إحدى زميلات العمل بالمدرسة الإعدادية التي أعمل بها، كانت قد لاحظت ارتفاعَ معدل الشجار بيني وبين زوجي، وأن الأمر قد أصبحَ يصل بيننا كثيرا إلى حد التطاول بالسباب والتشابك بالأيدي.

آثار الأصابع كانت واضحةً لدرجة لم يكن يصلح معها الكذب أو الإخفاء بالمساحيق والصبغات الجريئة، كنتُ أعتقد أن ألواني الصاخبةَ قد تخطف النظر ولو قليلا عن آثار اللكمات والصفعات، فمهما كانت أمورنا السيئة واضحةً فإن هذا لا يعني أن علينا الاعترافَ بها، بل ربما يعني أن علينا التمادي أكثر في الكذب والمراوغة.

إحدى الصديقات أخبرتني في مرة عن نظرية الشك التي تستعملها كثيرًا للتهرب من بعض المواقف، تقول نظريتها أن كل الأمور؛ بل حتى الحقائق تحتمل وجود ولو نسبة بسيطة من الشك، فلنقل خمسةً بالمئة، فكل ما علينا أن نلعب طوال الوقت على تلك النسبة البسيطة، وأن نقنع أنفسنا بأن كذباتنا التي نقولها للآخرين هي الصدق بعينه وبمرور الوقت سيقتنعون بما نمرره لهم من قناعتنا نحن.

– مبرمج؟!

لم أفهم الكلمة، ولم أفهم عن أي شيء تتحدث، وما علاقة البرمجةِ بخلافاتي مع زوجي.

– نعم، مبرمج. عدة أصدقاء أجروا عمليةَ إعادة البرمجة، والنتيجة كانت رائعةً، اختفت كل الخلافات تقريبا، حتى أنا نفسي، لقد فعلتها منذ عدةِ أشهر، وأصبحت لي ردود الأفعال التي كان يتمناها زوجي بالضبط، لم أعدْ أعارضه أو أناقشه في شيء، والجيد أنني أصبحتُ أفعل هذا دون أي إحساس بالضيق أو الإجبار. المشكلة أنني كنت لا أعرف دوما ما هي ردة الفعل المناسبة التي ينتظرها مني في كل مرة، حين كنتُ أصمت كان ينفعل، وحين كنت أجادله ينفعل أيضا، كان كثيرا ما يصفني بالغباء وأنني لا ألتزم الصمتَ إلا في الوقت الذي لا يصلح لذلك، حاولت أن أصدق على كل ما يقوله، ولكن تلك الطريقة لم تعجبْه أيضا. جربيها وستشعرين أنك قد أصبحت أكثر خفة وحرية.

– حرية؟ كيف تشعرين بالحرية وقد حددت مسارك لكل الأشياء والأفعال مسبقا؟

– الحرية ليست فقط في تعدد الخيارات أمامك، أحيانا تكون الحرية في إلغاء كل المسارات الأخرى، وهذا ما أجربه الآن، ولكن بمزاج جيدٍ وبال رائق، ألم تلاحظي؟

كنت قد لاحظت من فترة توردَ خديها، واعتدال مزاجها، وتراجعها عن العصبية المعتادةِ في تعاملها معنا ومع الطلاب في الفصل.

– سأرسلك إلى نفس المبرمج الذي تعاملتُ معه، هو ممتاز بالفعل، يفعل ما نطلبُه منه بالضبط دون زيادة أو نقصان، بينما البعض اتخذوا من تلك المهنةِ وسيلةً سهلة للكسب المادي فقط، فالبرمجة الواحدة قد يصل ثمنُها إلى عشرة آلاف جنيه وربما أكثر.

حكت لي عن إحدى قريباتها والتي كانت أكبر مشاكلها مع زوجها أنها كانت تتهربُ منه كلما طلبها للفراش، وكاد الأمر يصل بينهما للطلاق

خاصةً حين علم أنها قد اعتادت أن تضعَ له بعضا من زيت الكافور على طعامه لإخماد رغباته، فلجأت للبرمجة، حكت مشكلتها للمبرمج ولكنه غالبا لم يتفهم الأمر بصور جيدة.

صارت تطلبه هي لفراشها طوال الوقت، وبصورة ملحة حتى أصبح الأمر يشكل عبئا جسديا ونفسيا عليه، اشتعلت الأمور بينهما من جديد، وحاولت اللجوء لبرمجات أخرى، ولكن دون جدوى، فالبرمجة الفاسدة لا يمكن إصلاحها في الغالب.

انفصل عنها زوجها وأعادها لمنزل والدها الذي لم يتحمل تصرفاتها الغريبة، فأودعها إحدى المصحات النفسية، وهناك كانت تهرب من غرفتها ليلا وتنادي على بعض المرضى الآخرين وتدعوهم لمعاشرتِها، بعد خضوعها للعديد من جلساتِ العلاجِ الكهربائي توقفتْ عن تلك الأفعال، ولكن ظلت معها جملةٌ وحيدة ترددها طوال الوقت: «أنا جاهزة الآن، تعال وجرب بنفسك.»

سألتها:

– وهل عملية البرمجةِ تلك مؤلمة؟

– لا، تشعرين بوخز بسيط في رأسك أثناء نزع تلك الأجزاء من المخ المسؤولة غالبا عن كل ردود لأفعال أو الأفكار التي تريدين التخلص منها.

– وماذا عن الأفعال الجديدة؟

– يضع المبرمج قطعةً من الهلام أو الجيلو عديم الطعم مكان الأجزاء الناقصة ويثبت عليها شريحةً بالتعليمات الجديدة التي تريدين الاحتفاظ بها، ووظيفةُ هذا الهلام امتصاص الشحنات الكهربائية الزائدة التي تنتج من عمل تلك الشريحة، لذا فعليك توخي الحرص كثيرا في كتابة ما تريدين حذفَه أو

إضافته إلى رأسك، لكن لا تقلقي فهذا المبرمج دقيقٌ في عمله، وسيطرح عليك الكثير من الأسئلة والأفكار التي ربما لم تخطر ببالك.

بعد تفكير كثير، وشجارات أكثرَ قررت بالفعل الذهاب إلى ذاك المبرمج، واتفقنا على كل شيء، مرت العملية بسلام أو هكذا اعتقدت، فبعد يومين هادئين فُوجِئت بمادة لزجة تخرج من عينيَّ وأنفي، ومن جميع فتحات وجهي، ثم بدأت في الخروج من تحت أظافري.

ذهبت إلى المبرمج مرةً أخرى فأخبرني أن رأسي لم يتقبل الهلام وأنه قد تعامل معه على أنه كائن غريبٌ عنه فقام بتكسيره وطرده إلى خارج الجسم، ولأن الهلام مادةٌ سريعة التكاثر تجدد نفسها تلقائيًّا طوال الوقت، فقد اضطررت لإجراء عملية أخرى لسحب الهلام والشريحة دونَ التفكير في العواقب التي لم تكنْ حميدة بالطبع، فقد أصبحت أهذي كثيرًا وأتمتم بكلمات وجمل معكوسة وغير مفهومة، وانتهى بي الحال أيضًا إلى إحدى المصحات النفسية.

كانت تلك هي حكايتي التي قصتها عليَّ مرارا تلك الممرضة المعنية بي بعد قدومي إلى هذا المشفى، خاصةً وأنه أثناء سحب الهلام سحبوا العديد من الخلايا العصبية بالمخ حتى لم تعد لديَّ ذاكرة. ولقد قصت عليَّ الممرضة تلك القصةَ كثيرا وقالت لي: «احفظيها جيدًا كي تكون لديك قصة.»

طوبة

تمضي من طريقها المعتاد الذي حاولت أن تغيره مرارا، بيد أنها اكتشفت أن كلَّ الشوارع متشابهةٌ، وتنتهي غالبا عند نفس النقطة.

تحمل طوبةً من طرف نفس الشارع، وتقبض عليها بشدة، وكأنها تحاول أن تتشبث بها، تلقن طوبتها بعض الأفكار الجديدة، وترجوها ألا تخذلَها، وتسقط ضعيفةً وخائبة ككل مرة.

تراقب الشارع بعينيها، تراقب فتحاتِه، تحسب أعدادَ المارة وتحاول أن تحدد هيئاتهم وأعمارَهم، ومدى قربهم منها من أشكال الظلال المرسومة حولها على الأرض، تحاول أن تتذكرَ كل زلاتها السابقة، وتعصرَ تركيزها كي تتحاشاها هذه المرة.

في لحظة مرورها من أحد التقاطعات والتي اختفت عندها الظلال تقريبا، وبينما هي مشغولة بمراقبة الفتحات الجانبية للشارع الجديد، باغتها بيديه من الخلف، فانتفضَ جسدها بنفس الطريقة، وسقطت روحها مع الطوبة الهزيلة من كفها إلى الأرض.

بالملقاط

بينما كانت الفتاة تغرس أظافرها في خدي مرتكزةً بكوعها الأيسر على تلك العظمة الممتدة ما بين كتفي الأيسر ونهاية رقبتي لتنتف بملقاطها تلك الشعيرات الزائدة من أحد حواجبي كنت أحاول أن أمسك نفسي بشدة عن سبها، أكره تلك اللحظات التي يقترب فيها أحد مني كل هذا القرب، خاصةً وأن العاملات المبتدئات بتلك الأماكن لا يهتممن عادةً بما يثير ضيق الزبائن كطول أظافرهن، ورائحة أياديهن أو أفواههن، والتي غالبا ما تكون محشورةً في أنوف الزبائن بالغصب.

كنت أعرف تلك الفتاة التي بالكاد قد بلغت السابعة عشرة، لقد جاءت إلى هنا منذ خمس سنوات تقريبا بأمر من زوج أمها، كنت قد سمعت الحكايةَ عدة مرات، فقد ألقتها أمامي في أذن العديدات من زبائن الكوافير، منذ بلغَتْ الثانية عشرة وزوج أمها يلاحقها، ينتهز الفرص للمسها والاقتراب منها.

في أحد الأيام وبينما كانت ترتدي جلبابها المنزلي، والذي كشف عن شيء ما كان قد بدأ يتكور لتوه في صدرها فُوجِئت به يطلب منها أن تزيحَ جلبابها قليلا لكي يتسنى له مشاهدته.

تقول: كانت أمي توصيني دائما بإطاعة كل أوامره، ففتحتُ له صدر الجلباب بحذر، ولكني فُوجِئت به ينقض عليَّ بكفيه ويعتصرني، حتى شعرت بأن روحي كانت على وشك الخروج من بين ضغطات تلك الأصابع الغليظة، لم أتحمل الوجعَ فصرخت لكنه كتمني بلطمة، فاضطررت لتأجيلِ الصراخ والوجع وكل سيء، حتى أفلتني من بين يديه.

تكررَ الأمر عدةَ مرات، في كل مرة كنت ألتزم الصمت وأؤجل كل شيء حتى ينتهي ويفلتني، فأتكوم في حجرتي وأدفن وجهي في الوسادة حتى أفرغ كل ما بداخلي من صراخ أو دموع، ولكني أفشيت سره في مرة لابنة جارتنا، كانت تكبرني بعامين وكانت بلا أب أيضا، بدت غير مرتاحة لما حكيته.

أخبرتني أنها سمعت شيخ الجامع وهو يحكي في مرة عن حال النساء في النار وأن الملائكة ستشدني من تلك الكريات الصغيرة التي في منتصف صدري والتي لم أكن قد فطنت لاسمها بعد ليعلقوني منها.

فزعت من الوصف وصرت أحلم كل يوم بالملائكة والشياطين وهي تشد منابتي بحلقات وسلاسلَ حديديةٍ وتتركني مدلاة منها إلى الهاوية.

أقسمت من بعدها ألا أتركه يعبث في جسدي مرةً أخرى، أفلت من يديه عدة مرات، ولم تعد لطماته تكتمني. أقسم على أمي ألا ينفقَ قرشا واحدا عليَّ بعدها، وأن عليَّ أن أعمل كي أدفع له ثمن إطعامي وإيوائي في بيته، لم تكن أمامي العديد من الخيارات والتي كان أولها هو أن أعملَ في أحد البيوت كخادمة، ولكن تلك الكوافيرة التي افتتحت محلها الجديد في بلدة خالتي أنقذتني حين اقترحت خالتي على أمي أن أعمل عندها فجاءوا بي إلى هنا.

تذكرت الحكاية وتذكرت كيف كان حال الفتاة وقتها بتلك العباءة السمراء التي لم تكن تناسب عمرها، خاصةً مع غطاء الرأس الذي زحزحته الآن كثيرا إلى الوراء بعدما استبدلت عباءتها بالبناطيل الأسكيني والبلوزات الضيقة، وأصبح غطاء الرأس غير المحكَم يسمح بخروج الكثير من الخصلات الملونة حديثا من شعرها الذي يتغيرُ لونه كل شهر تقريبا على حسب ما يتبقى من ألوان الصبغات التي تستخدمها للزبائن.

كانت مهمتُها في البداية تنظيفَ الأرض من بقايا الخيوط المستعملة والشعور المقصوصة، وتلميعَ الأحواض وغسل الفوط ونشرها بعد كل استعمال، كان هذا قبل أن يسمحوا لها بتعلم القص والنتف وأصول التصفيف وغيره.

انتابتني رغبةٌ في الهرب ككل مرة توجعني فيها بلفات خيطها الحاد التي تلفها بإحكام وسرعة على الشعيرات الصغيرة لنتفها، لم أكن أريد أن أهربَ من تحت يديها فقط، لقد فكرت مرارا في فكرة الهروب، لم يعجبني كل ما وصلت إليه، لا أدري لم شعرت فجأةً وأنا أتذكر قصتها أن حياتي قد غدت تشبهها، بيد أنها استطاعت أن تجد لنفسها مخرجا وحياةً أخرى بعيدا عن زوج أمها، بينما أنا أنخرط أكثر في حياتي وامتهاني لنفسي.

أنا من صرت أذهب إليه وأخلعُ ملابسي وأعرض نفسي عليه لأحصل على المقابل الذي أصبحَ يحدده هو على مزاجه، لقد ابتدأتُ اللعبة ولكني فقدت سيطرتي عليها وأصبحت الخيوط كلها كالعادة في يديه.

بدأت الحكاية بعدَ العديد من الشجارات حول فكرة العمل، العمل ممنوع، البيت والأولاد أولى بوقتك، دائما البيت والأولاد أولى بكل شيء: صحتي، وقتي، مجهودي بشرتي الشاحبة، وشعري المتساقط.

طلبت منه أن يعطيني مصروفا شهريا ولو مبلغا بسيطا، ولكنه رفض، كذلك كان العمل من البيت مرفوضا، كل الحلول التي عرضتها كانت مرفوضة، لم أجد شيئا أستطيع أن أتكسب منه المال سوى جسدي، لا أعرف أي شيطانٍ استطاع أن يحشر تلك الفكرة اللعينة في رأسي.

انتهزت الفرصة ونفذتُ الفكرة ونجحت في أول مرة.

– لن تقترب حتى أحصل على مقابل.

من الواضح أن الفكرةَ قد أثارته لدرجة أنه كان سخيًّا جدا معي، كنت سعيدة بالمال، أنفقت كل تلك الجنيهات في اليوم التالي لشراء حذاء جديد.

لم يكن زوجي يمنعني من الشراء ولكني كنت أريد أن أجرب متعة أن أكون أنا صاحبةَ الأمر وأن أخرج النقود من حقيبتي ولا أنتظره ككل مرة عند الكاشير حتى يتفحصَ أشيائي الخاصة ويقرر أيها سيدفع ثمنها وأيها سيتم إرجاعها إلى الرف بالضبط كما كانت.

في المرة التالية طلبت مبلغا أكبرَ وكذلك في الثالثة، ولكنه كان قد بدأ يفطن إلى اللعبة ويضعَ قواعدَ جديدةً حتى أحصل على ما أريد، أو أضطر لقبول المساومة التي يعرضها عليَّ، أصبح المبلغ دائما أقل، وغدا الأمر أكثر إهانةً خاصة مع مساوماته التي لا تنتهي، ولكني لم أستطع التخلص من تلك العادة، كنت أعتقد في البداية أنني أعاقبه باستنزاف أمواله ولكنني اكتشفت أنني لم أكن أعاقب سوى نفسي.

انتهت الفتاة من عملها، دفعت لها المبلغ المحدد، لاحظت أن صدرها قد زاد حجمه كثيرا عن آخر مرة، فابتسمت لقوة ملاحظتي، وتركت لها بقشيشا جيدا.

عدت إلى المنزل ولمحته في المرآة بينما كنت أبدل ملابسي، كان قد أصبح هزيلا عن ذي قبل، ربما لأنني قارنته بصدر الفتاة، لم أطل النظر إليه، وارتديت ملابسي المنزليةَ بسرعة وفكرت في قبول مساومة اليوم بلا أدنى نقاش.

صوت المكنسة

اتصلت بصديقي لأتفقَ معه على الخروج للعب الكرة كعادتنا كل خميس، تركني الصديق معلَّقا على سماعة الهاتف الأرضي وذهب لاستئذان أمه التي كانت في الغالب تجلس معه في نفس الغرفة، حيث تمكنت من سماع صوتِها بوضوح وهي تجيبه:

– ماشي، روح إلعب معاه، ولكن تعال قبل السادسة، كي تتلقى العزاء في أبيك.

سألته مرتبكا حين شعرت بحركته بينما يعود إلى السماعة من جديد:

– هو أبوك مات؟

– لم يمت بعد، أمي تقول إنه سيموت بعد ساعتين، نكون خلصنا الماتش، وحين أعود في السادسة سيكون لديَّ وقت كافٍ كي أستحمَ وأبدل ملابس اللعب، وتكون أمي قد دفنته مع بقية أقاربنا الذين سأتلقى منهم العزاء في السادسة.

أغلقت الخط مندهشا من إجابته، ولم أخرج من دهشتي إلا على صوت أمي الذي ظهر حين أطفأت مكنستها الكهربائية بخبطة من إحدى قدميها كي تطلبَ مني ألا أنسى إحضار العيش الفينو معي عند العودة.

قبل أن تعيد أمي تشغيل المكنسة داهمني صوت أبي المتألم في الغرفة المجاورة، دخلت إليه لأتفحصَه، شعرت كأنني لم أره منذ مدة طويلة.

– مالك يا بابا؟

– تعبان، مش قادر آخد نفسي!

شعرت بصدره وهو يلهث بعنف في محاولة منه لسحب أكبر قدر ممكن من الأوكسجين دون جدوى.

هرعت إلى أمي، أصرخ بنبرة عالية كي أتغلبَ على صوت المكنسة، أخبرها أن أبي مريض، فهزت رأسَها بلا أي اندهاش، وكأنها تعلم الأمر. لم ترحب باقتراحي للاتصال بجارنا الطبيب، ولا حتى بإخبار إخوتي المتزوجين كي يأتوا لزيارته.

اتصلت بإخوتي غصبا عنها، أجابتني أختي الكبيرة بفتور حين أخبرتها بمرض أبي، وشكوت لها من تعنت أمي بخصوص الطبيب، طلبت مني ألا أقلق. وردد إخوتي جملا متشابهةً وكأنهم على اتفاق، ولكن لم تعلق في أذني من جملهم سوى واحدة: «طولة العمر ليك!» فتركت الهاتف، وعدت ثانيةً إلى أمي أتوسل إليها أن تتركني أستدعي الطبيب.

أطفأت أمي المكنسة، ونحتها جانبا، ربتت على كتفي بطريقة مبالغ فيها: «صدقني يا حبيبي مفيش فايدة!»

– متبشريش عليه، سبيني أجيب الدكتور وهياخد الدوا ويبقى كويس.

تصل صرخاتي وكلماتي لأبي في غرفته فيبدأ فعلا في التحسن، أدخل إليه وأحضنه، أطمئنه أن الطبيب في الطريق، يحضنني بشدة، ويربت على كتفي.

– إنت الوحيد اللي مصدقني.

أخرج لأمي التي لم تكن قد انتهت من شفط الأتربة بعد.

– شوفتِي؟ بدأ يتحسن ونفسه انتظم!

– لا تصدق أوهامَك يا حبيبي، لقد مررنا بهذا الأمر أكثرَ من مرة، وكل مرة لا تصدق أنه سيموت، وحين تفيق تكتشف أن أباك ميت بالفعل منذ أكثرَ من سبع سنوات.

أحاول أن أهرب من كلمات أمي التي أشعر أنني قد سمعتها من قبل، أذهب مجددا إلى غرفة أبي، أحضنُه، أتشبث به، ويتشبث بي. أحاول أن أتبادلَ معه أي حديث آخرَ بعيدا عن أحاديث المرض والموت، ولكن أصواتنا تخرج بلا أثر، ولا يسمع أي صوت بعدها غير صوت المكنسة التي تجرها أمي.

على راسي ريشة

حين كنت في الصف الرابع الابتدائي كانت زميلاتي بالفصل يتهامسن كثيرا عن شيء غريبٍ يحدث لهن ولا أعرفه، كانت الواحدة منهن تغيب ليومين أو أكثر، ثم تعود للصف، لكنهن دائما كنَّ يمشين بطريقة غريبة وكأنهن قد عدن لتعلم المشيِ من جديد، وتعود البنات للهمس والتغامز مجددا.

في البداية لم يكن يصدقن أنني لا أفهم ما الذي يتحدثن عنه، خاصةً أنهن كن يتكلمن بالرموز ولا ينطقنَ الكلمات بطريقة صريحة، أخيرا تطوعتْ إحداهن لتخبرني بحقيقة ما يتحدثن عنه، بعدما وعدتها أكثرَ من مرة أنني لن أخبرَ أحدا عما قالته بل وأنني أيضا لن أتفوهَ بتلك الألفاظِ الصريحة بعدما أسمعها.

شعرتُ بصدمة شديدة بعدما حكت لي خاصةً، وقد أكدت أن كل البنات يجب أن يفعلَ فيهن هكذا كي يصبحن أكثر أدبًا، علمت أيضا أن تلك الكلمة (العيب) اسمُها طهارة.

لفترة طويلة انتظرت أن تفاتحني أمي في الموضوع، أو حتى أن تفاجئني به، فقد عرفت من حكاياتهن أنهن يفاجأن غالبا ولا يخبرهن أحد بشيء كي لا يعترضن، أو يكون لديهن الوقت الكافي ليفكرن في الهرب.

انتظرت طويلا ولكن أمي لم تخبرني بشيء، فقررت أن أواجهَ أكبرَ مخاوفي في ذاك الوقت وسألتها أنا، فلاحظت أن أمي قد انفعلت بمشاعري، وحاولت أن تطمئني وتخبرني أن غيرَ المتعلمات فقط هن من يفعلنَ هذا ببناتهن، وأنها وأبي متعلمان بما يكفي كي لا يؤذونني بتلك الطريقة.

ارتفعت معنوياتي بعد تلك المواجهة رغم شعوري بالأسى لزميلاتي اللائي يُفعَلُ بهن ذلك بغير ذنب أو حتى فائدة مرجوة كما كن يعتقدن.

ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي وأنا أشعر حرفيًّا بمعنى جملة (على راسها ريشة) خاصةً بعدما أخبرت زميلاتي أنني لن أتعرض لما تعرضن له، وأنني لن أمر بتجربتهن السيئة تلك أبدا، كانت الدهشة تعلو وجوههن جميعا حتى لأني شعرت بالريشة وهي تتحرك من نظراتهن فوق رأسي. ولكن ذاك الزهو لم يدمْ طويلا، فقد تحولت نظراتُهن إلى مزيج من الحسد والكراهية وقاطعنني لعدة أيام على اعتبارِ أنني هكذا لن أصبح أبدا فتاةً مؤدبة.

حبل الغسيل

لم تكن أمي من هؤلاء اللائي يجدنَ ترتيب قطع الغسيل على الأحبال بطريقة لافتة، كنت أُعجَب بالأحبال التي تهتم صاحباتها بتنسيقها والاهتمام بها مع مراعاة تناسق الألوان والأطوال.

تمنيت كثيرا لو كنتُ مثل هؤلاء، ولكن أمي لم تكن تسمحُ لي بأي إضافة أو تعديل على ترتيب وضعها لقطع ملابسنا الرطبة، حتى لو فكرت في انتهاز فرصةٍ ما كمرضها أو انشغالها بأعمال أخرى، فأذهب أنا لنشر الغسيل كنوع من المساعدة، فسرعان ما كانت تأتي لتراقبني وتتأكدَ أنني أتبع نفس طريقتها في النشر وإلا فإنها تقوم بنزع كل المشابك وإعادة ترتيب القطع من جديد.

بوكسرات أبي وأخي في أول صفٍّ ثم الفانلات البيضاء المنقوعة في المسحوق الزهري والمعصورة جيدا في الصف الثاني، ثم قمصان أبي وبناطيله هو وأخي في الصف الثالث وبقية الملابس مرصوصة في الخلف تليهم الملاءات ثم القطع الداخلية الخاصة بي أنا وأمي.

لم يكن يعجبني ذلك الترتيب الذكوري الذي حاولت أن أخالفه كثيرا ولكن بلا جدوى، تشاجرتُ معها في مرة لأضع الفانلات الزهريةَ في أول صف حتى تخفي القطع الداخلية الأخرى، ولكنها لم تقتنع أبدا.

بعد زواجي أصبحت أحبال الغسيل كلها لي، ولي وحدي الحقُّ في رص القطع كما أريد، ولكني لم أحصل أبدا على الشكل المنمَّق الذي كنت أحلم به، كنت أضع فانلاته البيضاء أولا، وبعضا من ملابسي، وفي الصف الثاني قطعه الداخلية الأخرى.

بعد سنة كنت سعيدةً بوضع القطع الصغيرة التي تخص طفلتي قبل قطعنا، بعد طفلتين وذكر تغير الوضعُ قليلا، كان شكل بوكسرات الفتى الصغير ينعش قلبي كلما حركها الهواء بحرية على أول صف.

الاسم الجديد للشارع

من فترة غيروا اسم أحد شوارع البلدة، لا أعرف لم أصابني الأمر بكل هذا الإحباط، خاصةً وأنه لم يتم تغيير الاسم رسميًّا، فلم ألحظ تعليق لافتة جديدة.

ولكن ما أحبطني أن الأمر بدا وكأنه مجرد تقليعةٍ من بعض صغار الشباب هنا، الغريبُ أنه لم يتغير لاسم أحد الرموز الدينية أو الوطنية مثلا، ولكنهم سموه باسم أحد المحلات المفتتَحة حديثا باسم (Select) مما يوحي بأن الاسمَ قد يتغير أكثر من مرة، وأن الشوارع وربما المدينة بأكملها لم تعد لنا.

شعرت بغصة حين لم يتعرفْ سائق التوكتوك –في مرة– على الاسم القديم، وكأن الاسمَ لم يكن موجودا من الأصل، شعرت أن أحدَهم قد بدأ يزاحمني على العالم، بل شعرت لوهلة أنني لم أعد موجودةً، وربما لم أكن موجودة ولا المدينة ولا حياتي السابقة كلها كانت هنا، أحدهم يريد أن يزحزحني قليلا وربما كثيرا كي يستفيدَ بالمكان الذي أشغله، وكأنه أراد قبل إزاحتي أن يخلصني من ذكرياتي وعالمي الذي عشتُه، ربما كي يسهل عليَّ تقبل الأمر فلا أقاوم.

ربما تعثر السائق في نطق الاسم الجديد ولم يتمكن من نطقه بصورة صحيحة، ولكنه بدا وكأنه يحاول اللحاق بالعالم الجديد الذي لا يريد أن يتركَ مكانَه فيه لأحد مهما كلفه الأمر.

ربما شعور الإحباط هذا كان قد بدأ يداهمني بعدما تخطيت الخامسة والثلاثين، كانت المرة الأولى التي أشعر فيها أنني قد كبرت حقا، خاصةً وقد تزامن الأمر مع ظهور بعض الشعيرات البيضاء لأول مرة على جانبي رأسي،

كنت أعلم أن ظهور الشعر الأبيض في رأسي يعني عمرا حقيقيا خاصةً مع انتمائي لعائلة لا تعرف الشيب المبكر.

ولأول مرة وجدتني أحسد من يشيبون مبكرا لأنهم لن يواجهوا أبدا تلك اللحظةَ الفاصلة، والتي يتأكدون فيها أن أوان الشيب قد حان، وأن الشعيرات البيضاء ستزحزح كل الأسود وتأخذ مكانه بمنتهى الهدوء.

أعلم أن الأمرَ سيتم ببطء وأنني لن أموتَ بشيب كامل، ولكن الأمر نفسه ما زال يبدو مخيفًا، كيف سنترك أماكننا بكل تلك البساطة كما يتخلى الأسود عن صبغته ليغدو فجأةً ساكنا بلا لون أو حياة؟

حدوتة أخرى لسندريلا

كانت تشبه السندريلا الموجودةَ في كل بيت، كل يوم كانت ترتدي قميصها الأبيض الشفاف، وتجلس على إحدى الكنبات المهملة كي تنتظر الأمير الذي يعود متأخرا ككل ليلة.

الأمير الذي لا ينسى أبدا حكاية الحذاء؛ الحذاء الذي يحشر فيه قدمي سندريلاته المفضلة ليتأكد أنها ما زالت تحملُ نفس مقاسِه (أقصد الحذاء)، حتى لأنَّه يضطر أحيانا للضغط على قدميها وفعصهما إذا ما كان قد ضاقَ عليها، أو يذهب للبحث عن بعض عيدان الكبريت أو حتى أوراق النقود البالية ليوزعَها على جوانب الحذاء كي لا يتركَ لها مجالا لخلعه، ولا يأبه عادةً لضيقها وحزنها من فكرة قدميها اللتين لا يجب أن تتحركا حافيتين أبدا بعيدا عنه.

لم تكن تلك الجنية طيبةً أبدا، لقد استطاعت أن تحبسها في ذاك الحذاء اللعين إلى الأبد، أصبحت هي وكل سندريلا مملوكة لكل صاحب حذاء، وتحولت كل السندريلات لأقدام، بعدما كرس الأمراء أموالَهم كلَّها لصناعة الأحذية.

لم تعد تفرح السندريلا أبدا، ولم تعد تخشى الثانية عشرة لأن الجنية استطاعت بمكيدتها أن تختزل عمرها كله في ساعة واحدة كانت قابلةً للتكرار طوال الوقت، وبشكل تلقائي.

ألقت الجنية تعويذتها الشريرة على السندريلا الساذجة التي لم تفهم، فمنعتها من الشعور بالوقت، ولم يعد يمر بها العمر بعدما أصبحت هي العمر وبدأت هي بالمرور على الآخرين.

ماتت زوجة أبيها، وتحولت شقيقتاها لقدمين سخيفتين، تم حشرهما في زوجين من الأحذية الرديئة الصنع ككثيرين.

في النهاية انتصرت الجنية وتساوى الجميع وامتلأ العالم بالأحذية.

كلمات مهجورة

«عِيني عليّ!» ... سمعت تلك الجملة لأول مرة حين ابتدأت في الذهاب إلى الجامعة، ففي طريقي لموقف الزقازيق –حيث كانت الجامعة التي دخلتها– كنت أمر على سوقٍ صغير تتجمع فيه بعض الفلاحات القادمات من بلدان ريفية بالجوار ليبعنَ بضاعتهن من خضروات وفاكهة تنبت في قراهن.

حين سمعت الكلمة من إحداهن للمرة الأولى لم أفهم معناها، وقفت مكاني أحاول أن أستفهم أكثرَ من المرأة، فربما كانت تتحدثُ بلكنة غير معروفة، ولكني لم أصلْ لشيء وظلت المرأة واقفةً أمامي تكرر نفس الكلمة بلا انقطاع، لما يئست من فهم مغزاها تركتُها وتابعت السير في طريقي.

تكرر الأمر أكثر من مرة وفي كل مرة كنت أقف بسذاجة دون أن أفهمَ أو أتحرك حتى سمعت نفس الكلمة في مرة، ولكنها كانت موجهةً لشاب يمضي بجواري، فقررتُ أن أقفَ لأرى ردة فعله تجاه الجملة.

اتجه الشاب تجاه المرأة ورفع يديه وأعانها على إنزال مشنة الخضار التي كانت فوق رأسها، فأدركتُ أنني قد وصلت أخيرا إلى معنى الكلمة، فكان المقصودُ إما أن أساعدها في إنزال المشنة الثقيلة أو أن أساعدها في رفعها من الأرض ووضعها على رأسها فتمضي بها إلى طريقها.

في بلدة أبي كنتُ أتعجب من الفتيات والسيدات اللائي يحملنَ مشنات وطشوت مصنوعة من الألومونيوم أو النحاس الممتلئة عن آخرها بأطباق وأوعية ويمشين بها بمنتهى الثبات مهما كانت أطوالهن أو أحجامهن.

كنَّ دوما يتحركن بخفة كلاعبات الباليه، يحملنَ الحلل والأواني الثقيلة أو حتى أي شيء آخر ويقطعن الطرقات بخطوات سريعة وواثقة، كانت الأحمالُ إذا ما تمايلتْ فوق رؤوسهن تمايلن معها بخفة ليحفظنَها من السقوط، لم تكن الواحدة منهن تمشي بتلك الأحمال فقط، ولكنها كانت أيضا تمرُّ بها فوق مواسيرَ رفيعةٍ جدا تربط ما بين جانبي الشوارع التي تقطعها الترع المائية والقنوات الصغيرة لتمرَّ عليها من أحد جوانبي الشارع إلى الجوانب الأخرى.

كانت تلك المواسير مصنوعةً من الحديد وأحيانا كانوا يثبتون لوحين من الخشب العريض إلى جانب بعضهما البعض ليصبحَ الأمر أكثر أمانا. كنت أتعجب كيف تمر الواحدة منهن بتلك الخفة ولا تسقط، أو تتعثر حتى.

كانت جدتي لأبي لا تستطيعُ أن تحملَ كيسا أو حقيبة في يدها، اعتادت أن تحمل الأشياء كلها فوق رأسِها، كانت تضعُ كل شيء في المشنة وتمضي، حتى أن تلك الفعلةُ قد تسببت في خلافات ما بينها وبين أبنائِها خاصةً الإناث منهم، فبعد انتقالهم من القرية إلى مدينةٍ مجاورة أكثرَ تحضرا، رفضت هي الذهاب معهم.

كانت تنتمي للبلدة بكل ما فيها، فكانت تذهب إليهم كل فترة تحمل فوق رأسها بعض الأرغفة التي خبزتها لأجلهم وبعض خيرات الريف كالبطاطا المشوية أو صينية الأرز المعمر والبط المشوي في الفرن.

اشترت لها إحدى بناتِها حقيبةً مصنوعة من الخيش السميك لتضع فيه أشياءَها وتمسُّكها بقبضة يديها ولكنها رفضت استخدامها.

في الماضي كانت الترع تقطع كل الشوارع تقريبًا، هذا قبلَ أن يتمَّ ردمها تدريجيا حتى اختفت كلُّها من البلدة. حين كنت أفكر في تقليد هؤلاء النسوة وأفكرُ في عبور الترعة كنت أختار أكثرَ المواسير عرضا كي أتأكد أنني لن أسقطَ، ومع ذلك كنت أفعلها بمنتهى الخوف.

كانت أكثر اللحظات خوفا هي تلك اللحظة التي أصلُ فيها إلى منتصف الماسورة الطويلة، حينها كانت تبدأ في الاهتزاز العنيف لأنك في نقطة المنتصف تكون قد وضعتَ ثقلَك كله عند أكثر النقاط ضعفا، فتراودك الرغبة في العودة وتبدأ في فقد السيطرة على خطواتك التالية والتي تصبح أكثرَ توترا وأقلَّ انتظاما.

ولكن سكان القرية لا يعانون من هذا التوتر أو الاضطراب، ربما تعودت أقدامهم على تلك الطريقة أو أنَّ المواسير تحفظ وقع أصحابها، فتتمسك بهم وتمنع أقدامهم من الانزلاق.

كنا نضطر للمرور على بعض الألواح الخشبية أيضا حين كنا نعبر النهر بالمعدية إلى مدينة زفتى حيث كان يعمل أبي، كنت أكرهُ تلك الألواح التي نمر من فوقها عند انحسار المياه، حيث لم تكن المراكب تتمكن من الوصول إلى أماكن المراسي المخصصة لها.

كانت تلك الألواح تبدأ في الاهتزاز بمجرد أن تضعَ ساقك عليها، لم أكن أعرف من أين كان ينبت هذا الخوف؟ هل كان خوفا من السقوط؟ أم خوفا من تلك الاهتزازات التي تحدثها خطواتنا على الألواح؟ ربما الإنسان في حاجة لأن يشعرَ بوجود أرض ثابتة تحت قدميه كي يطمئنَّ، بينما تلك الاهتزازت تفقدك الثقةَ في كل شيء وأوهم نفسك.

عند تلك المعدية كنا ندفع خمسة قروش عن كل شخص ثمنا لرحلتي الذهاب والعودة، كانت هناك المراكب الشراعية والآلية التي تعمل بمواتيرَ أو محركاتٍ فتجعلها أسرع، كانت الرحلات بالتبادل، فمركب شراعي يليه آخر بمحرك وهكذا، هذا قبل أن تبدأ المراكب الشراعية في الاختفاء التام.

كنا نتحايل على أمي لكي تتركنا ننتظرُ المركب الشراعيَّ إن لم يكن عليه الدور في الذهاب، أحيانا كانت ترضى وأحيانا أخرى كانت ترفض نظرا

للوقت الطويل الذي يقطعه المركب والذي كان يتوقف أحيانا في منتصف النهر نظرا لقلة الرياح التي تساعده على الحركة على الرغم من وجود الرجل الذي يحاول أن يزيدَ من حركة ذراعيه كي يحركَ المجذافين بقوة أكثرَ فيعود المركب للحركة من جديد.

اختفت الترع واختفت المراكب الشراعية، ولم أعد أعبر النهر إلا باستخدام السيارة التي تمر من فوقِه من خلال أحد الكباري الحديدية، حتى النساء اللائي يحملنَ مشنات الخضار صرنَ يبحثن عن آخرين وأخريات غيري أكثرَ شبابا وصحةً ليطلبن منهن العون، اختفت العديد من الأشياء وتبقت اهتزازات الطرق في الذاكرة حتى في الطرقات الأكثر وسعا ورحابة.

الأستاذ محمود

في الثامنة إلا خمسة كنتُ أوقع أمام اسمي في دفتر الحضور قبل أن يغلقَه الموظف المسؤول، ويستمتع بلهاثنا خلفَه ليسمح لنا بالتوقيع إذا ما تعدت الساعة الثامنة، كان الأستاذ محمود متزمتا جدا فيما يخصُّ مواعيدَ العمل، لا يتهاون معنا إلا نادرا جدًّا وإن كنا لم نصل إلى قواعدَ معينة لتلك الأوقات التي تكون فيها غزالته رائقةً لدرجة تجعله مستعدًّا للتهاون والتماس بعض الأعذار للموظفين.

الأستاذ محمود يتحكم بالدفتر منذ حوالي عشر سنوات وهي نفس عدد السنوات التي قضاها هنا ليس في المستشفى فقط، ولكن في البلدة كلها، يقول: «لم أكن أعرف بلدةً اسمُها ميت غمر قبل أن يرميني مكتب القوى العاملة إلى هنا.»

هذا على الرغم من أنَّه كان قادما من إحدى قرى محافظة الشرقية، والتي أقسم أن أحدا لم يسمعْ بها من قبل.

– لكنها مدينة جميلةٌ وهادئة يا أستاذ محمود.

– على العكس، ليست مريحةً على الإطلاق، لم أفهمْها إلى اليوم، بلدة محيرة لا هي بالمدينة ولا هي بالقرية، تقفُ دائما في المنتصف بالضبط كأهلها.

شعرت أن في حديثه إهانةً خفية، حاولت أن أتغاضى عنها عله يتغاضى عن التعنت معي فيما يخص توقيعي اليوم في دفتر الانصراف، ولكنه استطرد قائلا:

– عارفة يا دكتورة، لم سميت مدينتكم بهذا الاسم؟

كنت أعرف الاجابة بالطبع، كانوا يلقنونها لنا في حصص المواد الاجتماعية في الصغر في دروس اعرفْ بلدَك.

– نعم يا أستاذ محمود، اسمها الأصلي منية غمر، منية تعني مدينة وغمر جاءت من النيل الذي كانت مياهُه تغمر المدينةَ وتغرقها تماما.

– جيد، معلوماتك جيدة أيتها الطبيبة، ولكن ألم تسألي نفسك من قبل، وبعد أن يغمرَها النيل وتختفي، كيف كانت تعود من جديد؟

أربكني السؤال، حاولت أن أتفلسف قليلا، ففكرت أن أخبره بأنه ربما لم يكن يبتلعها تماما، ولكنه لم يترك لي الفرصة، وتابع حديثه:

– مثلكم تماما، تفعلون ما تفعلونه طوال اليوم، ثم يغمركم النسيان كما كان يفعل بكم النيل، وتتبدلون بأشخاص أخرى في صباح كل يوم جديد، لقد مللتُ من تلك الخصلة التي وجدتها هنا في جميع العاملين، كلكم تنسون كل شيء، أو تتناسون، لا أعرف، لا ضررَ من نسيان الإساءة، ولكنكم مع الأسف تنسون الخيرَ والمعروف أيضا.

أصبحت الإهانةُ واضحةً جدا الآن.

– لكني لا أنتمي لهذا البلد تماما أستاذ محمود، لي أصول من محافظة أخرى قريبة، ربما كانت صفاتُها أفضل قليلا.

وتصنعت الضحك عله يتزحزح عن فكرة العداء الصباحية التي تلبسته اليوم.

– من فضلك أستاذ محمود، كنت أريد أن أستأذنك بخصوص توقيع الانصراف، عندي مشوار مهم جدا، والأجازات ممنوعة في المستشفيات كما تعرف.

– مش هينفع يا دكتورة.

– والله المشوار لظرف طارئ ومهم جدا.

– أنت تعلمين ظروف البلد والثورة.

– ليس لي دخل بالثورة.

– تعلمين أنه تم تسجيل حالات لمصابين، واعتقلوا بعض الناس في التحرير، استطاع بعضهم أن يثبت وجوده في مكان آخر عن طريق توقيعه المثبَت في دفتر حضوره، وتم استدعاء موظفي الدفاتر.

– وما دخلي أنا، إنت عارف، إحنا ف حالنا، ثم إن الطريق للقاهرة مُغلَق منذ عدة أيام.

– هناك طرق بديلة أنتم أدرى بها مني.

– أحلف لك والله، أني مش رايح ...

لم يدعني أتم حلفاني، وأقسَم أنه تهاونَ من قبلُ مع أكثر من طبيب، ثم علم بعدها بذهابهم إلى التحرير. أدركت أنه لا فائدة تُرجى من جدالي معه، فتركته ومضيت.

بعد عدة أيام فُوجِئنا بخبر استشهاد أحد الزملاء متأثرا بجروحه إثر اختراق صدره بطلق ناري في إحدى تظاهرات التحرير، وتمت إحالةُ الأستاذ محمود إلى التحقيق لأنَّ الطبيب كان موقعا في دفتر الحضور يوم استشهاده، وليومين بعد مقتله.

بعد أيام قامت جهة حكومية بتسليم جثةِ الطبيب للمستشفى على اعتباره ليسَ ميتا، حيث كان مسجَّلا في دفاترها حتى بعد وفاته.

أُصِيب مدير المستشفى ومعاونوه بالذعر، لم يرد أحدهم أن يتحمل مسؤولية استلام الجثة، انتهى الرأي على تسليمها رسميا للأستاذ محمود بصفته المسؤول عن هذا الخطأ، اضطُرَّ يومها لاستلام الجثة بعد شجار وسباب تبادله مع المدير والضابط المختص بتسليم الجثة، ورفضَ دفنها على أساس أنها لم تمت كما هو ثابت في دفاتر المستشفى.

مع الأسف كانت الجثة قد وقَّعت اسمها في حضور اليوم الذي وصلتنا فيه، اضطر الأستاذ محمود في النهاية لتسلم الجثة التي أبقاها في مكتبه حتى حان ميعاد الانصراف، وفتح لنا الدفاتر في الثانية بالضبط، وأغلقها بعد عشر دقائق، وقعنا نحن وحمل هو جثته على أحد كتفيه، استقلَّ أحد التكاتك من أمام بوابة المستشفى واصطحب جثته إلى البيت.

صرخت زوجته لما عرفت أن في بيتها جثة.

– يانا يا هيا ف البيت!

ظل محمود ساكنا لا ينطق، جرَّت الزوجة أولادها الثلاثة وخرجت إلى بيت أمها، ذهب لعمله في الصباح، كان متجهما، لكنه فتح الدفتر في ميعاده، كنا جميعا موجودين قبل ميعاد التوقيع، وقعنا، وأقفل الدفترَ وغادر المستشفى، ظل على هذا الحال يغلق الدفتر في الصباح ويمضي، ثم يعود ليفتحه بعد الظهر بساعة.

سمعنا أن زوجته عادت للمنزل هي وأولادها بعد يومين فقط، وأنها بدأت تعتاد الأمر، أصبحت جثة الشهيد جزءا أساسيًّا في بيتهم الذي أصبحَ اسمه بيت الشهيد محمود.

يقال إن زوجته عادت بعدما تأكدت أن جثث الشهداء لا تتعفن، ولن تفوحَ منها روائح غير طيبة، وأن هذا فقط هو ما أخافَها من الأمر.

– أصبحنا نكن له احتراما زائدا ولا نناديه إلا بسيادة الشهيد.

– صباح الخير سيادة الشهيد.

– شهيد!

تساءل متعجبا كأن هذا لم يكن لقبَه منذ عدة سنوات.

– كنت عاوزة أستأذن حضرتك ف إمضة الانصراف أصل عندي مشوار.

– تحت أمرك يا دكتورة.

– بجد؟!

اندهشت لموافقته السريعة...

– ولكن: ماذا عن الثورة؟

– ثورة؟

– والشهيد الذي في بيتك؟

ضحك الرجل ببلاهة غير معتادة.

– عن أي شيء تتحدثين يا دكتورة؟ منذ جئت إلى بلدتكم هذه لم أرَ منكم سوى كل خير، ولم أسمع أبدا لا عن ثورة ولا عن شهداء.

العارف

نفَّذ العارف الوصية كما يجب.

«متكشفنيش على حد غيرك، لا راجل ولا مرة.»

كان وحده معها في الغرفة، كانت السيدات يناولنه الماءَ الدافئ في الطشوت وأطباق الغسيل، فيأخذها منهن عند عتبة الباب ويغلقه عليه مرةً أخرى، لم يكن جسدها قد تيبس، بل ظلَّ طيعا ومرنا ما بين يديه إلى النهاية، كان يجلسها ويقلبها بمنتهى السهولة وكأنها كانت تشعر به وتساعده.

لم تكن قد تناولت شيئا من ليلة أمس ولا حتى شربة الماء، ما عدا قطرات قليلة مسحَ بها شفتيها في لحظاتها الأخيرة، لم تكن تريد أن يرى منها ما يكره خاصةً بعد أن ترحل، حتى الذهب خلعته بنفسها من أسبوع فات لتهون عليه، خلعت القرطين ولفتهما بمنديل ووضعتهما في الدولاب، وقصت الغوايش بالمقص من يديها المتورمتين، وضعتْهُما في يديه وقالت: «وزع الغوايش مع باقي الذهب، واحتفظ بالقرطين، ففيه بعض مني.»

انتهى من غسلها، حشا منافذَها بالقطن الرطب من أثر دموعه، كان لا يزال يحبُّها، وكان يعلم كم كانت تحبُّه، تذكر حين ضاق عليه الحال في عامهما الثاني معا حتى لم يعد في جيوبه ما يسد به جوعهما، طلب منها أن تعود لدار أبيها ولكنها رفضت، وقالت: «جوع البطن يتسد، بس جوع الروح لأ.»

أخذها بعدها بيومين لزيارة أهلها وتركها هناك، حكى أحوالَه لأبيها وقال: «مقدرش أهينها.»

تفهَّم الأب وتركه ليمضي، حين علمت مليحة بفعلتِه غافلتهم في الصباح وركضت إلى عزبة العارف التي كانت تبعد عن قريتهم باثنين من الكيلومترات، عندما وصلت كانت آلام المخاض قد بدأت تداهمُها رغم أن ميعادها لم يكن قد حان.

بدلا من أن تطرق الباب كانت تعضُّ قطعَ الخشب البارزة منه بأسنانها لتكتم وجع الطلق، استجمعت بعض القوى ما بين طلقتين قاسيتين وطرقت الباب.

فُوجِئ بها العارف، فحملَها إلى غرفته مبلَّلة لآخرها بالدمع والعرق وماء الولادة الذي ظل يسيل دافئًا ما بين فخذيها لساعات، لم تكن تعلم شيئًا عن هذا الماء، ظنَّت مثلَه في البداية أنها قد فقدت التحكم في عضلاتها وأنها قد أفرغت مثانتها دون أن تشعر على الرغم من أن الماء لم تكن له رائحة البول.

أرسل العارف أحد الجيران لطلب الداية التي جاءت لتساعدَها حتى وضعت طفلته الأولى، فكانت (وش السعد) كما يقولون، انهمرت عليه النقطة والهدايا من كلتا العائلتين وكانت البداية لانفراج الأزمة.

كان ينظر لوجهها ويتذكر أول يوم لهما معا، وكأنه يسائل نفسه: «هل تلك هي التي تزوجها وهي بنت الثالثة عشرة؟»

في ليلة الفرح كانت تلهو في الصباح مع صاحباتها في الشارع بفستانها الأبيض، بكت بحرقة حين لطخته إحداهن بالطين، ركضتْ إلى أمها لتشتكي إليها، فوجدتهم قد كتبوا كتابَها وسلمتها أمها للعارف غير آبهة ببكائها.

حملها العارف على الحصان الذي كان قد جهزه خال العروس وزينه خصيصا لهذا اليوم، لم ينتبه العارف إلى بكائها إلا حينما وصلوا إلى دارهِ الجديدة في عزبة العارف، كانت أمُّه قد جهزت له مصباحين بفتلتين جديدتين، عمرتهما جيدًا بالجاز وضعت أحدهما في الصالة والآخر في غرفة النوم.

حين اختلى بها وتطلعَ لوجهها على ضوء المصباح ورأى آثارَ الدموع التي لطخت وجنتيها بالسواد لما اختلطت بالكحلِ الذي زينته بها القريبات في الصباح، سألَها في لطف عن سبب البكاء ولكنها لم تجبْ، نظرت بأسى إلى الفستان المتسخ، فانطلقت منه ضحكةٌ أخافتها وحبست في عينيها ما تبقى من دموع، لكنه لما شعرَ بخيبة أملها منه قام على الفور، فبللَ قطعةً من فانلاته البيضاء النظيفة بالماء، ومسح لها أولاً خيوطَ الكحل السوداء التي انسابت على وجهها، ثم قام بمسح آثار الطين من الفستان.

سألها: «كيف اتسخ الفستان؟»

قالت: «كنت ألهو وأرقص مع البنات فرمينني بالتراب والطين.»

قال بمكر: «أتجيدين الرقص؟»

قالت بتحد: «نعم.»

ودارت بالفستان كما كانت تدور في الصباح ورقصتْ له حتى انتشى من فرطِ الضحك والسعادة، وتلقفها بذراعيه حين كادت تسقطُ بعدما داخت من طول الرقص والدوران كالأطفال.

اليومَ هي بين ذراعيه أيضا يلفُّها بالقماش الأبيض الذي اشتراه لها بناءً على طلبها حين أحست بدنو الأجل، تمنى لو كانت قد داخت من اللف، لو قامتْ من جديد ودارت معه كما كانا يفعلان في أوقاتِ الصفاء.

عطَّرها بالمسك والكافور، حتى أن الرائحةَ كانت قد تسربت من الغرفة إلى باقي غرف الدار حتى كادت تطغى على رائحةِ الموت التي ملأت أذهان الحاضرين مذ علموا بالخبر.

انتهى من كل شيء وقبل أن يهم لفتح الباب شعرَ وكأن يدًا ما تربت على كتفه ودوى صوتها في أذنه:

«تسلم إيديك يا العارف، سترتني حيةً وميتة.»

فهرس

قابلة للقضم 13
جميل 15
حرف الدال.. 20
موظفون للعالم الآخر.. 21
وقطعت أياديهن 28
رأس مستعمل للبيع.. 30
احتكاك.. 33
طريق.. 35
باللمس.. 36
الأصوات.. 37
كلاب جائعة.. 39
انتقام 42
مدينة الملاهي 44
مسامير.. 48
كرنفال 49
متعة 50
لعنة الأكياس 51
الطريق الآخر.. 53
دخان كثيف 57
زينب 58
بدون تذكرة.. 62
بالمثل.. 65

جلسة مناسبة 67
دمية.. 71
ذاكرة هلامية 72
طوبة.. 76
بالملقاط 77
صوت المكنسة... 81
على راسي ريشة.. 84
حبل الغسيل... 86
الاسم الجديد للشارع.. 88
حدوتة أخرى لسندريلا.. 90
كلمات مهجورة 92
الأستاذ محمود 96
العارف.. 101
فهرس 105